




صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET



موت الخيال
كرم صابر


صفصافة
2016

# موت الخيال

تأليف

## كرم صابر



كرم صابر/ در


موت الخيال

كرم صابر

الطبعة الأولى فبراير 2018

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:





الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي








دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

# موت الخيال

إلى

حسام ابن جارتنا أمل

# قبل الدخول

في عالم التوحد معايير مختلفة لترتيب الأحداث وماهية الأماكن، تتبدّل حروف اللغة وتعزف موسيقى هائجة لم تتعوّد على سماعها، وتوشّي اللوحات بألوان وأحاسيس جديدة لم يشعر بها قلبك.

أرجوك لا تهتم بميراث الكتابة أو تاريخ القراءة، افتح قلبك لتراهم يقفون من حولك ويتمنون شعورك بقبولهم في الحياة، فلا تتردد وادخل عالمهم متحررًا من أسوار ذاكرتك.

# (1)

أعود اليوم مطعونًا في ذاكرتي، كيف هتكتموها، وتبولون على رأسي في وضح النهار؟

أجري خلف الفراغ، وأحطُّ بجوار شجرة مورقة، وأنظر إلى المصرف الخالي من الخوف، وأتساءل: "من يستعديني على روحي؟".

كانوا هنا، ونزفوا بطنك بالسكين.

لا يهم؛ لأنني سأصعد فوق الشجرة وأُراقص العصافير وأغني.

امتهنوا كرامتك، وسرت وراءهم تلهث كالكلب.. ماذا وضعوا في قلبك كي يوقفوا تدفق رحيق الأماني بداخلك؟

سيعاودون إحضار السلاح، ويأتون كلما نظرت من ثقب الباب.. هل رأيتهم؟

لا شيء كان هناك، لا أسوار، ولا قناصون، ولا سلخانات

للروح.

يمكنك الآن الخروج والجلوس على المقهى، لا تتلفت حولك، فالحراس الذين يلهثون وراء جسدك، ويبحثون عن طيفك ليس لهم وجود.

لا أحد خلف حوائط حجرتك سوى قطة لقيطة تبحث في كيس الزبالة عن بقايا علب التونة، فلا تهتم بصوتها أو أنينها؛ لأن شقتك لا توجد بها سلة للنفايات.

فقط عيون تبحث عن المجهولين خلف الجدران، ولن يشعر بك أو بهم أحد.

اتركهم، واقفز من فوق السور، اهدم البوابات، واستمر في سيرك، فالبيوت المحيطة بالحدائق ترمح أمامها العصافير.

لكنها مغلقة.

لا يهم، لا يهم.. فخلف جدرانها شوارع مفتوحة على براح، تصطف على جانبيها المقاهى، يمكنك أن تركض وتركض، ولن يشعر المخبرون الذين غافلتهم بطيفك.

أرجوك توقَّف أمام ضفة النهر، وتشمَّم رائحة الحرية.

# (2)

كل ما حدث تم نسيانه، حتَّى الأشخاص الذين طعنوك وهربت من خيانتهم غادروا للأبد، أنت الوحيد الذي تخيل وجودهم طوال الرحلة، ابدأ حياتك، ولا يهم كل تاريخك.

ستجري أيامًا طويلة أمام عينيك، وأنت تلاطفهم وتحاول إلهاءهم عن لون قميصك الفضي.

أرجوك أخرج قُربانك ليدخلوا في قاعك، وينسوك، طمئنهم حتى تدخل السكينة قلوبهم، وينامو بجوارك صامتين.

ترغب في أخذ راحة من هالتهم التي تراقبك، وهم يحيون يومياتهم الهانئة دون جنونك.

لا.. أنت لا تقول الحقيقة، كانوا يسخرون من رمش جفونك، ويتبكتون على وجهك المكتوم، ويندهشون من تصديق شخصٍ على وجه الحياة أكاذيبَهم.

كنت تشرب مياه النهر الملوث، وهم يقيمون في الحديقة ويضاجعون السماء، وأنت تبكي لحزنهم.

كانوا أحرارًا دون خيالات مريضة أو قيود، وأنت تقف من بعيد تتخيل وجوههم الحزينة، فتكافح لتجعل حياتهم أكثر ضراوة، فيتجاهلون نن عينيك، ويصرخون للطيور كي تستكمل غناءها.

لكنك تيقظت اليوم ورأيت بنفسك أسوار الجدران تتهاوى.

أنت الآن خارج نطاق بيتك المفروش بالسجاد، بعيدًا عن المنتجع الذي فرضوا عليك العيش وسط أسواره ومحلاته.. بعيدًا عن مكتبك وعملائك وخزانتك، فاستكمل خطاك ولا تخشَ عودتهم إلى حياتك.

انطلق، فعلاجك لا يوجد بدواليب المستشفى الذي ألقوك على سريره وغادروا، دواؤك هنا، وأنت تعرف ذلك، فاستمر في الركض، علَّك تجد من يشاركك الحياة.

# (3)

مرة أخرى أنزوي في مرقدي، وأتوه داخل حجرات منزلي الواسع، لكن صورتها لا تفارق عيني، من أنتي لتُهَيْمني على روحي، وترقصي على جثتي رقصة الموت الأخيرة؟!

تُلقين بحذائك على الجمهور، وترمين بملابسك الداخلية في وجهي، وتمسكين السيجارة، وتلفين كمغدورة حول المسرح عارية لتفوزي بغنيمتك.

من أنتِ لتكرري هذا المشهد كل ليلة، وتغرزيه في جروحي؟

أجلس على ترابيزة قديمة آخر القاعة، أراقب خلاعتها، وهي تختار الشباب المدهوش من بحة صوتها، لتفتك برجولتهم في غبش الظلام.

يقذفني بسهامه، ويتوسلني كي أرحم نفسي، وأتركها في حالها، أسمعه يخاطبها بنشوة قائلًا: "لا شيء يضنيني سوي حنيني إليكِ".

ليس بوسعي الآن فعل شيء، جردوني من أسلحتي، وهربوا يستنجدون بظله، وهو يحاول أن يذهب إليهم، رغم عجزه،

يتقرب منهم ويحتضنهم، لكنهم لا يشعرون بوجوده.

فيعود مرة أخرى إلى مرقده، ويشعل النار التي يتلظون داخل لهيبها.

لماذا كل هذه القسوة، ومن زرعها في قلبك، ووضع النار فوق الحصى، وغرس وجهك في المستنقع؟!

لا أدرى، كل ما يهمني الآن هو دوام ظلي تحت أقدامهم، كي يشعروا بلحظتهم الأخيرة في جهنم.

أسمعهم الآن وهم يصرخون داخل القِدْر ويقولون: "أنقذنا يا أبي، أنقذنا يا أخي، أنقذنا يا صديقي".

أضحت عيوني وأحاسيسي كالحجر، لم أسمع صوتها المتوسل، أو أرى وجوهها المحسورة.

الدماء تغلي في رءوسهم، وأنا أمسك المغرفة وأقلب القِدْر، وأنتشي برائحة لحومهم، أتشمم الدخان بنشوة، وأشعر بنبض عروقهم، وأفتح عيني، نعم بدأت النار الهادئة تفعل مفعولها في عظامهم.

من هؤلاء؟

لا أعرف.. أصواتهم تبتعد، صورهم تختفي، أطفئ النار وأصعد إلى سريري سعيدًا بحرقهم.

# (4)

تيقظت في الصباح، وأيقنت أنني وحيد، فعاودت طبخ الخلطة، وضعتهم جميعًا داخل القدر وأشعلت النار، وحينما بدأوا صراخهم، وضعت وردتي عليهم، وأغلقت الحلة.

كانوا يتفحمون بداخلها، النساء العوانس، والرجال الضائعون اندمجوا في روح واحدة مخلوطة بزهوري.

رفعت الغطاء وتشممت رائحتهم، وانتشيت كملك متوج بالمجد، وعدت إلى الوراء خطواتٍ لأشاهد وجوههم المستغيثة وسط الدخان.

أنت مجنون؛ لأن رائحة شياطهم تفزع الجيران، أتتجاهل عذابهم، وتحتار في معرفة معنى سعادتهم أو تعاستهم؟

لا أدري.. ويجوز أنك تقول الحقيقة، لكني عاجز عن الرؤية؛ فالجميع تحول داخل القدر إلى نقطة لزجة تفوح بالخوف، ومع ذلك لم تشعر روحي بنكهتها.

وضعت القدر فوق النار، ووضعت المزيد من الورد، وملأتها

بالماء، وقلبتها، وانتظرت لدقائق حتى ذابت روحي بداخله.

غرقت في قاعه، فشعرت بلهيب النار يزداد، هاجموني وجروا ورائي، ووضعوني داخل أسوار عالية، جردوني من ملابسي، وعلّقوني على السقف حتى أُدمي جبيني وأنفي.

فكوني، وأطلقوني في شوارع وسط جهنم، وشاهدت نفسي أدخل بيتًا، قالوا إنه سكني.

وجاءتني امرأة مغدورة، وطالبتني بالركوع وتقبيل حذائها قبل دخولي حجرتها الحارقة.

نادت عليَّ نماردة صغار، قالت إنهم أبنائي، احتضنتهم ليشاهدوا والدهم العاجز، يبوس قدميها، لتسمح له بالمبيت بين جدران منزلها المبني من هسيس النار.

سحبوني وسط النوم إلى سلخانة كبيرة، وتفننوا في سلخ جلدي وجرح خصيتي، قطعوا لساني، وخرموا أذني، وقصقصوا أصابع قدمي، وتركوني أنزف وحيدًا، وخرجوا سعداء بتحويلي كائنًا أبرص.

عرفت قصتهم حين نزلت إلى قاع القاع، ورأيت مليكتهم التي تجلس وسط المغارات متباهية بيافطتها المكتوبة أعلي عرشها بخط كبير: "مملكة الأسى".

# (5)

شاهدت نفسي ملقًى على شاطئ البحر وحيدًا، كنت عجوزًا أرتدي بدلة زرقاء، وأتعكز على عصاي.

هبَّت الريح عاصفة، فطارت أوراقي وشوافة عيني، وعندما حاولت ملاحقتهم، وقعت على الرمال، وتقاذفتني الأمواج.

التموا حولي، ولملموا حذائي وقصاصتي، وركنوهما إلى جوار جسدي المهتوك.

رأيت صديقي يسخر أو يبكي، ويردد بسعادة، وهو يجلس على كرسيه الهزاز: "كان ينوي السباحة في المحيط هاربًا من مملكتنا".

تذكرت طيفي، فقاومت وحاولت الوقوف، اندهش الجمع، وصفقوا للمارد الذي يرغب في إذابة عظامه في مياه الجحيم.

تجمعوا حوله، ولم يقتربوا أكثر من خطوة تجاه هالته.

نظر أبناؤه إلى وجهه الضاحك، كأنهم مأخوذون، وتساءلوا: "لماذا حرمنا رؤية لحظته الأخيرة؟".

شاهدت نجمة عالية تخاطبني، وأنا ملقى على ظهري أتفرس وجوههم، بكت على وجهي أمطارًا وأمطارًا، وقالت: "لا شيء

يستحق، انطلق بعيدًا"، تراجعوا وصرخوا، واقتربت عربة الإسعاف من جمعهم.

وحين غادرتهم السيارة، نظروا إلى أنفسهم بأسى، وكشفوا عن خبايا أعماقهم، وفتحوا أفواههم مبتهجين لرحيله، وبدأوا في التندر على رحلته الضائعة وغيابه المجهول.

لملمت أشلائي وبقاياي، وتكورت على سرير عربة الإسعاف، فجاء باكيًا، ونظر إلى وجهي المكدر، متسائلًا في شغف: "لماذا جحدتني وأنكرتني، رغم عشقي لروحك؟".

طوال الرحلة إلى باب المستشفى، لم يكن هناك إلا الصمت، وصوت ضحكته الغارق في بياض عيوني.

نعم لازمني كملاك، وابتهج لحضور اليمامة إلى مرقدي، وغنى معها أغاني البراح، لم يغب يومًا، وكان سبب مأساتي ونكران أهلي وأصدقائي؛ لأنني فضّلته عليهم، فاستحققت عن جدارة مكاني خلف الأسوار.

كنت إذا أغلقت مسارات الدم في عروقي، يأتيني من شباك غرفتي الواسعة، ويطبطب على روحي، ويهدئني لأنسى صوت زوجتي وغلَّ عملائي، فأعيش معهم كالميت، أسمعهم وأفهم كلامهم، لكني لا أرد عليهم، لانشغالي بلون رموشه التي تشبه أنف وحيدتي.

حينما تيقظت في الصباح، درت في الحجرات الكثيرة كمعتوه، أبحث عن دوائي الذي خبأته في مكان لا أتذكره.

## (6)

قذفت جرعات البنج في حلقي، وتسربت إلى عضلة القلب، فخف نبضي، وعاد بوجهٍ جديد لا أعرفه، وسألني: "أتريدني أن أصدق أن ما جرى كان حلمًا؟ أتريدني أن أهتم بقلبك الخاوي؟ أكانت هذه المآسي التي جرت في حياتك سرابًا؟".

انشغلت عن صوته بهديل اليمام، ورغم ذلك واصل كلامه، كأنني غير موجود، أسمعه وأتفاعل مع غضبه، لكنني غير قادر على الرد.

دخلت علينا إحدي الفتيات وقالت إنها ممرضتي، تركني ونظر إليها بعطف، وحدثها عن وحدتي وغيابي، ووبَّخني وأشار إلى جثتي، واستكمل كلامه بمواجهتي كأنني رتقة عفنة وجدوها بمقلب القمامة.

نعم لم يؤثر وجودك أو حياتك برُمَّتها في شيء، أنت منسي وميت، ولا يوجد أحد يهتم ببراميل النار التي ألقوها فوق رأسك.

لم تشعر بأنينهم، وكل ما سمعته ينفي وقوع هذه الجريمة

التي عاشوها، وأصبحوا جزءًا منها ثم تناسوها بغرابة.

أنت لم تكن موجودًا، ولم ترغب في تخفيف الحمل عن يومياتهم.

حتى هذا اليوم الذي أخفيت فيه أوراقك داخل حقيبتك وتركت المقهي هاربًا، وسرت وراء "العربي" كالمخطوف، وتسحَّبَ أمامك في حوارٍ وزوايا، ونادى بعلو صوته: "يا حزينة"، حتى ملامح هذا الرجل أخفتها ذاكرتك.

تجاهلتُ سن الحقنة المغروس في جنبي، وقلت: "لكنني تشممت رائحة مدخل البيت، ورأيت وجوه النسوة والأطفال الذين نظروا إلينا، ولم يهتموا بوجودنا لانشغالهم بماتش المصارعة الذي أذاعته القنوات الفضائية على الهواء بين بطلي العالم".

يومها استكمل "العربي" زعيقه، ودخل إحدى الحجرات دون استئذان، وخبط بقدميه في جسد امرأة شبه كفيفة، وقال: "الساكن الجديد، هاتي المفتاح يا مرة".

وضعت المرأة يديها تحت المخدة وأخرجت رزمة مفاتيح، وسلمتها إلى يديه في صمت، وطالبني بتسليمها حصتها في المبلغ المسروق، وخرج سعيدًا بقوته، سار بردهة المنزل الواسع، وفتح إحدى حجراته، وسألنى: "الأمانة معاك؟"، وتركني لأواجه مصيري.

كنت مرهقًا ومتعبًا من التخفي والهروب، أمسكت البطانية المدفونة بالركن، وخبطتها في الهواء، وفرشتها على الأرض، ووضعت حقيبتي تحت رأسي، ونمت.

شاهدت اليمام يرفرف داخل أسرابٍ طويلة فوق رأسي، لف حول جسدي وغرَّد، نزل على شجرة البلوط التي تتوسط الدار، وعاود طيرانه مبتهجًا، حدث كل ذلك، وأنا ما زلت بين اليقظة والحلم، أستمتع بظهور أول نهار لي في هذا المكان.

الآن أتذكر تفاصيل هذا اليوم الذي ترغب في إخفائه داخل بئر أعماقي.

نعم انطلقت أصوات الرصاص، وامتلأت الحجرة بجيراني الذين تفاجأوا بوجودي، وسألني أحدهم عن هويتي، لم أردّ، واحتضنت حقيبتي، وانسحبت رعبًا من عيونهم.

نظرت من ثقب الباب إلى ردهة المنزل الممتلئة برجال ونساء يرفعون بنادقهم إلى السماء، ويبحثون عن مجهولين، ويدوسون في طريقهم على كل الروث الذي يملأ طرقاتنا.

دخل أحدهم حجرتنا، ودار وسطنا رافعًا بندقيته كمجنون، ودون أن يهمس، أطلق خزانتها في السقف، فوقعت بعض ألواحه الخشبية، وانفتح من فوقنا مخزن مملوء بالبشر، وتساقطت بقايا أجساد ودماء غزيرة علينا.

هرول جيراني داخل الحارة، وتركوا منزل "حزينة" للمجهولين الذين قتلوا عشرين شابًا اختبأوا في صندلة مخفية بحجرتي التي لم أقضِ فيها إلا ليلة واحدة.

عند هذه اللحظة شاهدت الممرضة تضع صوانِي وأطباقًا على ترابيزة صماء، وطالبتني باليقظة كي تتمكن من إطعامي.

كان شباك حجرتي مفتوحًا عن آخره من ورائها، وشاهدت اليمام ينظر بعيونه البنية إلى جسدي المهلوك، كان يدعمني ويدفعني لأواصل طريقي وأخرج وأحط على أغصان الشجر وأغني.

لكنني دخلت في غيبوبة طويلة، ولم أعد أعرف نفسي.

من أنا، ومن أنتم؟

رأيت أشخاصًا طيبة ومريبة ومتطفلة ومبغضة وتعيسة وعدائية، تهجم على روحي، وترميني بعوالم لم أتخيلها في حياتي.

ومنذ تلك اللحظة تحولتُ إلى شخص آخر، لن تعرفوه، تداخلت أصواتي وضمائري، ولم أعرف منذ اختفائها، من يتحدث، ومن يسمع؟

# (7)

لا، أنت تكذب علينا، لم يصارعك أحد أو يهتم بوجودك، كل ما جرى أنهم كانوا يرغبون في نور السماء الذي أخفيته عن شباك غرفهم.

واجهوك، وانتهكوا عرضك، وتركوا الحجرة التي استوليت على مفاتيحها، وغادروا سعداء بنجاتهم.

لا تسألني اليوم عن الرحمة، فهم جميعًا لن يتذكروك إلا ليضحكوا على كم الكذب الذي أبدعه فمك كي يعلمهم التسامح.

يا الله، أهذه المدن التي زرتها، والأحلام التي رأيتها، والبيوت التي عشت بين جدرانها ونمت تحت أسقفها، والبشر المرعوبون الذين أخفوني.. كانت خيالات؟ أين الحقيقة إذن؟ ومن هؤلاء؟

أراك الآن تنام فوق بؤرة سوداء، ثم تصحو وتجري مرتعدًا من المياه المتجمدة تحت قدميك، وتجلس تحت ربوة عالية، مندهشًا من البراءة، ومن بعيد ترى أسوارًا عالية، لا يمكن أن يطولها أحد.

وسط ظلامك، ينبثق شق في الأسوار، يكشف عن نور وحياة من خلفه، وتنهمر الكلمات بداخله، كأنها خطوط ملونة.

هل رأيتها؟ هل لامست سطورها التي جرت أمام عينيك كالسهام؟

هل توقفت، أو قمت من غفوتك، ونظرت من طاقة السور التي مر منها الكلام ليرسم حروف اسمه؟ كان أبيض لم تشُبْه شائبة، وجميلًا، كان شعره ناعمًا ووجهه أحمر من الشمس التي أكلت جسده، كان سعيدًا ويضحك.

تجاهلته وقفزت بسرعة، وأغلقت طاقة النور بظهرك، ونمت ليلة أخرى لا ترغب في رؤية العصافير، ورفضت إنارة روحك بضيها.

لكنهم كبّلوا قدمي ويدي، ورفعوا الأسوار من حولي.

نعم صدقت طوال الرحلة هذه الأوهام، كي تنام وتخون، وتتلذذ بحرق لحومهم، صدّقت كل ذلك، ولم تؤمن بأحلامك التي رأيتها بنفسك.

نعم كنت تقف أعلى هضبة مدقوقة، وسط الحدائق، وشعرت بنسمات الفجر تملأ الفضاء بروائح الندى الذي ألقى على الزرع والأشجار والتربة والمياه شعورًا أشبه بالبكارة.

تفاجأت بانفجار هادئ وبطيء، وانطلقت عين المياه تشق

نهرًا كبيرًا تحت قدميك، اخترقت الأرض الوعرة والفراغات المخيفة، ورسمت ملامح نهر جفت شقوقه، نعم حدث كل ذلك وأنت ما زلت واقفًا لا تدري ماذا تفعل؟

تساءلنا من حولك: "أينزل من الربوة التي يتخيل نفسه فوقها؟ أيدوس في الشوك ويعبر الحفر، ويسير باتجاه النهر الذي يتدفق أمامه إلى مجهولٍ بِكْرٍ؟ أينتظر حتى تخرج الشمس، أم يواصل حيرته، وتضيع منه فرصة الحياة؟".

لكنك وقفت مدهوشًا غير قادر على الفعل، أو تسجيل الأحداث التي تجري عبر الطاقة المشبعة برائحة الندى ونور القمر البعيد.

رأيت حروف الكلمات والناس من ورائها تسير إلى مجهول، وتدفق شعاعها الأبيض مثل نور الشمس، وبدلًا من تسجيل الحروف بذاكرتك، ظللت جالسًا غير عابئ بالحياة.

لم تُخْرِج قدميك من المياه، ولم تقترب من ممر النجاة، أو تراقب وجوه الناس الممتنَّة، وظللت مصلوبًا بمكانك المقدس عاجزًا عن تصديق الحكاية التي جرت أحداثها خلف جدرانك!

# (8)

تركت الأسوار وراءك وانطلقت، جريت مرتعدًا، وتوقفت عند نفس النقطة المصقولة داخل ذاكرتك ولم تشعر برحيق عرقهم.

تجاهلت ضي النور، والناس المبتهجين بالألوان والزهور والبحر والوجوه النضرة المملوءة بطاقة الحب، وامتنعت عن السير وسط بيوتهم الهانئة بالسكينة.

توقفت غير عابئ بهمس الزهور أو رائحتها، وتنصتَّ على صوت الحدآت التي تولول في الصباح، وتساءلت والدموع تترقرق على خدودك: "من كان خلف الباب يتلصص على أنفاسي؟".

كانوا هناك يتفاوضون على قتلي، وعادوا دون اتفاق، حملوني وألقوني على شاطئ بركة مغمورة في زمن قديم.

ربطوا جسدي بالحجارة، والتفوا حولي في دائرة كبيرة، ونفَّذوا قرارهم، كانت الأسماك المتوحشة تنتظر قدومي، فككت قيودي، ونزلت وسط المياه فرحًا بالموت.

فمن كان يجرؤ في هذه المدينة على الحياة؟

تجاهلت طاقة السور التي تحجب حدائقهم عن قلبك، وعدت إلى مكانك المظلم من فتحة موحشة، وسرت في ممر طويل حتى قاعك الأسود.

نمت وسط ضواحي بيوته المهدمة، وصرخت نساؤها الملتاعة على رجالها العاجزين بغلّ .

دخلت وسط حياتهم غير عابئ بمقتل طيفك الذي رغب في الابتهاج مثلهم بليالي العيد.

لا .. أنت كذاب وأفّاق؛ لأنك تلذذت بالسحق والصراخ، وأضحى لا همَّ لك إلا رؤية دموعه لحظة فراقك وتساءلت كالأبله: "هل أتركه يرحل إلى عالم آخر أبغي اكتشافه، أم أقاوم، وأعيده خائر القوى إلى مملكة الحشرات؟".

لا تصدقوني، فأنا أصحو كل يوم أبحث عن مَدَدٍ ينعشني، ويعيدني إلى طيفي الذي يحدثني ويختفي كما يحلو له، فهل يمكن مساعدتي لأرى عيون أمي لحظة قذفي إلى عالمكم؟

أيستطيع أحد النوم مثلي كل ليلة فاقدًا طعمَ الأمل، ومع ذلك يواصل يومياته ويستمر؟

إلي أين تأخذني الطرق، وتقودني أقدامي الهاربة، وعقلي شارد مني؟

يشفقون على قلبي المريض، ومع ذلك يتدللون ويواصلون رحلتهم الصباحية باحثين عن طعم البهجة بعيدًا عن عقلي المغلول.

لذلك قررت ارتكاب جريمتي، وأرجو أن تغفروا هذه القسوة التي مُنِيتُ بها وأنا أقرر وضع السكين في جرحها وهواء البحر يلفح وجهي.

كانت العصافير تغرد وحيدةً، وأنا أخطو إليها مخفيًا الخنجر في جيبي.

السيارات تغبِّر الهواء الملوث، وبائعو اللب والترمس يملئون الشاطئ، ويهللون، متوقعين رؤية جسد العاهرة ينزف على الأسفلت.

وضعت قدمي على أرضية السيارة التي انطلقت إلى منطقة العشش، ونزلت مسحوقًا، لم أرد على سلام أحد، ودخلت خيمتي صامتًا.

نمت على السجادة الوحيدة ونظرت إلى السماء التي امتلأت بالنجوم، ورأيتها عارية تضاجع طوب الأرض كي تحيلني إلى كومة تراب.

تحسست الخنجر، ورحت في النوم مهزومًا.

من يستطيع حرماني هذه اللحظة؟ لا أحد فوق الأرض

يمكنه النيل مني أو إعادة قوة براءتي.

لكن الموتى ما زالوا يعربدون في الشوارع، ويبحثون عن ذكرى تعيدهم إلى الحياة، وأنا لا أعرف إلا جمع قصاصات الورق، والجلوس طوال النهار أمام منزلنا لأقطعها قطعًا صغيرة، تعجز المقصات المصنوعة من المكن عن تدشينها بهذه الدقة.

رغم هجرتي بعيدًا عن حياتهم، لكنهم يأتون آخر الليل، ويتمددون إلى جواري، وينامون حزانى لمآسي يومياتهم التي لا يحكون عنها لأحد.

فقط ينزفون من عيونهم الدموع، وأنا عاجز عن مداواة جروحهم، جُلُّ ما أفعله هو التفكير في طاقة النور التي اختفت، كأن وجودها سبب كافٍ لاستمرار حياتي وسط العميان.

الآن تيقنت بأنني وحيد، وأنني أحيى بين أموات.

نعم لا يمكن لهذه اليوميات أن تسمى حياة، لا يمكن لهؤلاء الجيران أن يسموا بشرًا، إلا إذا كانت الحكمة من وجودنا هي إخافة الكائنات الأخرى التي اندهشت من فقد حواسنا.

يجب تجاهلهم ومواجهة حقيقتي، نعم في يوم لا أتذكره، أخذوا روحي وحرقوها، وأصبحت أحيَى مثلهم بلا قلب أو انفعال أو شعور بالغضب.

كل شيء يمر من بين أقدامي كالهواء، هانحن نذهب إلى الجبانات، ونعود إلى المدافن، ولا أحد يشعر بصراخنا.

الجميع قرر تسلم عزائه وحيدًا، دون فضيحة؛ إذ لا يجوز للموتي أن يعزوا بعضهم.

شيء واحد لا أتذكره منذ يوم ميلادي، صوت واحد لو تذكرته لعُذْتُ وسط هذه الجثث أواصل الرتابة التي يسمونها نعمة تستحق الحمد.

لكن الشخص الذي تبحث عنه هو شخص وديع، لا يفعل شيئًا إلا الجلوس في الحارة وجمع الأوراق البالية، والانزواء في الركن، والنظر إلى السماء برقة وهو يتأمل حروفها ويقطعها قطعًا صغيرة تعجز العين عن رؤيتها.

يغضب ويبتسم، ويبكي دون صوت، علَّمته الأيام منذ وعيه أن يكون كتومًا، فأخفى مشاعره في الخن، وظل يحيى بيننا كنطفة، لا همَّ له إلا إضاعة الوقت.

تسحبه أمه كل مساء إلى داخل الدار، بعد تعليمه بعض الأشياء التي لا غنى عنها، مثل التباهي بالعجز، والنوم حتى الضحى، ورغم ذلك ينسى بعض الأحيان، ويدلدل بنطلونه وسط الحارة ويطرطر، فينظر المارة الميتون بدهشة إلى عضوه، ويتصعبون على حاله، ويستكملون سيرهم، كأن لا شيء حدث.

وعندما اشتكى القهوجي إلى أمه، عنفته أيامًا وشهورًا، حتى عوَّدته الجلوس على قعدة الحمام والتبول، خوفًا من الفضيحة.

لكنك كنت تهرب، كأن لا أسرة لك أو أصدقاء، ولا أحد يعرف تاريخك، تنام وسط أكياس الزبالة التي تملأ بيوتهم، وتغير أماكن نومك حسب صوت الثعابين والسحالي.

وتصحو كل صباح، وتتجه إلى الطابونة سيرًا على قدميك كشريط القطر، تأخذ رغيفين وتلتهمهما في ثوانٍ.

وتعود إلى الخرابة لتنام على ظهرك، وتنظر إلى السماء، تعد النجوم، وتراقب السحب، ثم تجري وتقف، وتسير في خطوة عسكرية مهيبة، وتلتفت حول نفسك كي يشاهدوك، وتنظر إلى الأرض وتضحك، ثم تعاود سيرك إلى منزلها مرة أخرى في خط مستقيم.

وحين يهينونك، تعض يديك وجلدك، وتدخل أظافرك في عينك، وتدور برأسك في الفراغ مشكِّلًا دوائر قوية، لا يمكن لأحد اختراقها.

ترتمي على الأرض مصروعًا، إذا شاهدتهم ينقلون أي ورقة من مكانها، وهكذا تستمر حياتك، حتى ينتهي بك العمر.

في آخر مرة نمت بجوار السور دون غطاء، شاهدوا عضوك الزائد عن جسمك واندهشوا، كأنك مخلوق مشوَّه تصر على

كشف عوراتهم المفضوحة بأجسادهم.

كنت طوال الوقت تحاول التواصل مع كائنات لا نراها، كائنات تضحكك أو تبكيك، تستمتع بأوقاتك معهم، كائنات ليست مثلنا، ومن طينة أخرى لا نعرفها، كنت تتواصل معهم، وتنقطع عنا، رغم تيقظك الدائم وسطنا.

تهرب منا، كي تستقبل أصواتهم، تنظر إلينا بدهشة، كأنك لا تفهمنا، ولا ترد على رسائلنا، ولا تهتم بانفعالاتنا، كأننا أحجار مخلوقة من كُرْهٍ، ورغم ذلك عشت بيننا في عالم الأموات بلا أمل.

فقط تغذي صمتك وبحثك المجنون عن مذاق وطعم ورائحة اللسان الذي يلوك الكلام، تجاهلت متعتنا في شيّ الأكباد، والنط على بعضنا البعض، وطقوسنا عند الخروج من المنازل أو الدخول إليها.

اندهشت من مواظبتنا على تكرار يومياتنا، وملء ذاكرتنا المنظمة بأمور مكررة، وتعاطفت مع كل النساء، وحزنت لفجيعتهن ومآسيهن، لوجود تلاصق وتشابك داخل عروق قلوبهن، يجعلهن يَفُحْنَ بعطرٍ منعشٍ، شعرت بنشوته، ونمت في رحابه سنواتٍ، لكن مخيلتك فقدت الآن كل هذه الأماني.

هجرت حياتنا، وماتت أحاسيسك، فلم تعد تتلذذ بملامسة الأجزاء الزائدة عن أجسامنا، مثل النهود وممرات البول،

ماتت رغبتك في شهقة القذف المصحوبة بتدفق سائل أشبه بالرغاوي، ونحن نصارع قوتنا في معارك فقد كرامتنا، راغبين في الوصول إلى الجنة المزعومة، كأن عالم الأموات أزليّ.

نعم فعلت كل ذلك من أجل أن تكون حياتي مختلفة عنكم، ولا يهمني الآن ما حدث؛ لأنني قررت التوقف عن التفكير في مقتلها، أو أخذ ثأري، ليقيني بأن رحيق قلوبهم كان وهمًا، وأن الحدائق التي رأيتها من طاقة السور هي الحقيقة.

# (9)

أهناك شيء يدفعنا للرجوع خطوةً، مقابل خطوة نخطوها إلى الأمام؟ وأين أنا بعد كل هذه المسافات التي قطعتها للعيش في المستقبل؟

أين أنا؟.. لا أدري، لكنني ابتعدت كثيرًا عن طيفي الذي رافقني، وعلمني دفء الوحدة.

لماذا لا تنطلق وتستكمل عمرك الباقي وسط عوالم الرضا، أو تقفز إلى الماضي وتخطفه؟ لقد رأيت الحقيقة، ومع ذلك تستمر وتتذكر وتتساءل، وكأن كل ما شاهدته وعايشته بنفسك كان حطام ذاكرة.

نعم يمكنك تجاهل الناس والأماكن والألوان التي فتحت عيونك وأنفك على ريق الحياة، يمكنك نسيان رنين وجوههم يوم التفوا حولك، وجرُّوك من قدمك العاجزة، ونزلوا فوقك بالعصي والسكاكين.

يومها فكوا حماري، وجرحوا فخذي، وتركوني وسط الليل أنعى حالى، ولم أتمكن ليلتها من الصراخ، فالخرابة وسط الليل لا يدخلها إلا مجنون مثلي.

تعكزت على عصاي، وخرجت من وسط أكوام الزبالة، وصرخت: "جاي الحقوني"، التمَّ المارة حولى وسألوني عن هويتى، فرددت كمجنون: "سرقوا حماري ومحفظتي".

صحا الخفير، واقترب من مرقدي وقال: "فداك يا شُرُك ميت حمار".

لملمت ملابسي ووصيته على عربتي، وسرت وسط الحواري أنقل قدمي العرجاء بصعوبة، استقبلتني "حزينة" بصراخها وسألتني عن خبزها، وحين لم يسعفني لساني، صرخت بعلو صوتها: "ولدي سرقوه الأنجاس".

اقتربت منها محاولًا مداراة الفضيحة، لكن أهل الحارة تيقظوا، وداروا حولي كالثيران.

حاولوا تخفيف بلوتها، وسمعت جمعهم يخاطبها ويردد: "معلهش يا حزينة فداكي الحمار، المهم ابنك رجع بالسلامة"، بكت وعددت كالسبايا، واقتربت من جسدي المهلك واحتضنتني، وسمعت أنينها يدخل أحشائي، ورددت مثل باقي الجموع: "فداك يا حبيبي ميت حمار".

تسحبت إلى حجرتها، وارتميت على الأرض، ولم أهتم بغناء العصافير التي ملأت أفرع البلوطة، ونمت بجوار "ميمون" كميت، وكعادته وضع قدميه على بطني، وغرد مع اليمام بوجهه الضاحك: "كوكو كوكو احمدو ربوكو".

في الصباح رفستني "حزينة" في جنبي، وصرخت لأصحو

وأحضر أخي من الوسعاية، كان عقلي شاردًا في لون المطواة التي جرحوا بها فخذي، فصرخت: "كفاية خلاص".

نظرت إلى السماء من شباك حجرتي، كانت الشمس على وشك الغروب، دخلتُ دون إرادتي الزريبة أبحث عن حماري، تحسست جرحي، فتيقنت بأن اللصوص سرقوني ليلة الأمس.

صرخت النسوة الملتفة حول "عربات" القماش بوجهي: "اجري يا شُرُك شوف أخوك ميمون راح فين".

سرت في الحارة أرمق عيون الساخرين من لساني الطويل وعرجي، وتعكزت على قدمي داخل حوارٍ طويلة أنادي: "عيل تايه يا ولاد الحلال.. لابس شوال ببج ولسانه أخرس.. ودايمًا بيضحك وهو بيعيط".

وصلت إلى باب البحر، ونزلت إلى شاطئ النهر، فوجدته ملقًى على الضفاف صامتًا، لا يتحرك، وحين رآني أمسك عصاه، وزحف محاولًا الغوص في المياه.

احتضنته، ورفعته على كتفي، كانت ملابسه ممتلئة بالطين، وسألته كأنه عاقل يسمعني: "كيف وصلت إلى هنا وحدك؟".

نظر إليَّ معاتبًا ليبلغني بأن الكائن الوحيد الذي كان يفهمه اختفى من الوجود.

كان ينام بجوار حماري ويطعمه الخضرة، ويمسح كفله العريض بيده، فاستكمل صامتًا: "حينما دخلت الزريبة ولم أجده، قلت علَّه ذهب إلى النهر ليستحم".

استقبلتني "حزينة" بصراخها، وخطفتْ "ميمون" من فوق ظهري وبكت كآثمة، وأطعمته سندوتش الفول الذي يحبه، وتركها ضاحكًا يلملم أوراقه المتناثرة.

نعم هذا اليوم وقعت أحداث كثيرة وعشتها، ولم تكن أضغاثَ أحلامٍ أو خيالات مريضة.

لكن لا أحد يهتم الآن بهذه المآسي، ومن الأجدَى لك مواجهة الحقيقة، وحرق حقيبتك وقصاصتك.

لا أحد يرغب هنا في سماع حكاياتك المفزعة، الكل يتمنى العيش دون شعور بطعم الوخز.

أنت الوحيد الذي تذكرنا دائمًا بالأسوار التي راودتك وأحاطتك، أنت الوحيد الذي تحاول الآن إقناعنا بأن داخل السور طاقة يمكننا الخروج منها إلى براح مفتوح، رغم أنك لا تستطيع تحديد موقعها، وتعجز قدمك عن الانتقال من مكانها.

فبالله عليك، لماذا لا تصدق أنهم غادروا، ولن يعودوا؟ بالله عليك، ارحل؛ فالشوارع الواسعة ما زالت تنتظر حياتهم دون قصاصتك المقرفة.

# (10)

عندما أتحول إلى "شُرُك" أمتلئ بالفخر، ولا أشعر بقدمي العاجزة.

أمرُّ في الشوارع بعربتي الكارو، مزهوًّا بسب الدين، ومناكفة المارة، وأتوجه على غير إرادتي إلى مخزن "العربي" الذي يتسلم زبالتي.

يشتكي ويتهرب، ويناولني خَمسَ برايز، رغم أن زبالتي تساوي ألفًا، فأشخر وأسب الدين، فيتركني ليفاوض غيري.

تتلقفني شريكته أو رفيقته "مخروقة"، وتناديني بلوع: "تعال يا أعرج قرَّب ماتخافش".

أحسها كجنيَّة، أراقب صحوتها، وشعاع عينها المسلط على قضيبي، فأذوب، وأعود إلى غيبوبتي، فتقترب أكثر من هالتي وتوقظني بملامسة جسدي بنهديها.

أجري كالحمار، وأخرج من مخزن "العربي" كالخُرْج، لا أبغي شيئًا من الله إلا مص شفتيها البضتين.

أنسى نفسي، وأسير وسط الشوارع سعيدًا، وحين يقابلني المخبر، أنكمش في نفسي، وأوافقه على مقاسمتي عرقي، وإلا صادر عربتي وحماري.

يتجاهل "شُرُك" هالتي التي تلازمه، ويسب الدين للسماء، وينظر إليَّ كأنني شريكه ويقول: "عجباك كده يا أفندي! هجيب منين دوا لأمي؟ دبرني يا حكيم يا بتاع الورق؟".

أتهرب منه، كأن لا وجود لوجودي، يتجاهلني وأتجاهله، ونستكمل حياتنا راضيين بمرافقة بعضنا دون الكشف عن هويتنا.

يدخل الحارة، فيستقبله العاجز بأوراقه المدشوشة، ينزل من عربته، ويحمله على ظهره، ويجلسه بجواره، ويقول في حب: "جبت لك معاي حلاوة طحينية يا ميمون".

أنظر إلى عيونه بشفقة ويريِّل لساني على صدري، لاستعادة ذاكرتي طعم العسل الذائب.

يمسح فمي، ويخرج من الصديري ورقة ملفوفة ويفتحها، ويضع قطعة منها بين شفتي، فأقفز من العربة، ألملم أوراقي من أركانها المظلمة.

أجري في خط مستقيم إلى منزلنا، وأجلس بجوار مرقد الحمار، منتشيًا من السعادة التي تملأ روحي.

يأتيني "شُرُك"، ويأخذني في حضنه، أفهم نظرة عيونه الشاردة، لكنني لا أستطيع الرد عليه، فأخاف من نفسي؛ لأنني غير قادر على احتضانه، وأبكي دون سبب.

يفك سرج حماره بتأنٍّ، ويجلسني على قطعة الحجر بجوار رقبته، فأنظر إلى عيونه الباكية، وأسأله عن يومه الطويل، وطعم بصاق البشر الذين كلما رأوه، قالوا بقرف: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".



# (11)

أنظر بحذر من داخل الطاقة، فأرى عوالم السلام تتدفق بهالة "ميمون"، أتوقف أمام نقطته السوداء التي تسد شرايينه، وأحوم حولها لأتعرف على مكنونها.

حين أتحسسها يبكي وينتفض، كأن السلوك التي تمده بمعنى إشارات التواصل بين البشر ماتت.. لعله مريض، وربما يوجد خلل في أجهزة إرساله التي تبكيه بحرقة حين أتلمسها.

أحوم حولها كمجنون محاولًا علاجها، فيصرخ: "آه.. آه"، يبكي أو يضحك محاولًا ملاطفة الحمار المنشغل بالعليقة، فيركله بقدميه، ويعود إلى عالمه تائهًا وسط أوراقه.

يدخل "شُرُك" علينا، ويضع قطعة الحلاوة المتبقية بجيبه في فم "ميمون"، فتمتلئ شعيراته بالدم الذي يحاول جاهدًا المرور إلى باقي خلاياه، لكن نقطته المصمتة تمنعه من الاستمرار في السريان.

يتألم "ميمون"، ويدور برأسه في الفراغ في دائرة لا يعلم أحد قطرها، يهاجم الذباب معتقدًا بأنه يناديه، فيزوم وراءه،

وينطق بأصوات ولهجات غريبة، كأنه كائن فضائي جاء إلى حياتنا بالخطأ.

يتركني "شُرُك" مع قصاصاتي، ويعود إلى حجرة أمه "حزينة" كي يستكمل ليلته، أتلصص عليهما، وأدخل قلبها.

هذه المرأة شاهدتها كثيرًا، لكني لا أتذكر الآن في أي حلم أو قرية أو حارة خاطبتها.

لكني أعرفها، فدائمًا مملوءة حنانًا وقسوة، تحب الحياة، وتكره المرض الذي أقعدها، وحرمها السير وسط الأسواق، تجمع الخضراوات والفاكهة، وتعود إلى حجرتها لتأكلها مع والد "شُرُك" الذي مات في ليلة مبغضة.

تعيش رغم مأساتها سعيدة بالنهار، تلاطف المارة وتسبهم، وتعاملهم كأنها فتاة بكر.

تسأل عن صحتهم، وتتحسس أعضاءهم وتنتشي، وتغرد مع النساء والصغار، أغاني المودة.

يا الله، رغم أنها كفيفة، لكن روحها مملوءة بالدفء.

تسحب الرغيف، وطبق الجبنة بالطماطم، وتحلف على "شُرُك" أن يأكل معها، ولا يحرمها متعة الحس بوجودها.

يستجيب كملاك، وينسى قدمه العرجاء، ويسحب سيجارة

ويشعلها، ويناولها في يديها، ويسرح معها في الماضي الذي أكلوا فيه وشربوا دون جهدٍ أو حساب.

تجري على جسر ترعة بعيدة، وتهرب وسط الحقول، ليضاجعها رجل أعور يصر على الزواج منها لإنجاب "شُرُك" و"ميمون"، تتقلب تحته وفوقه، وتصدر بفمها مواءً كالقطط، مواء حزينًا مؤلمًا: "آه، آه".

لكن زوجها يموت قنصًا في ليلة موجعة، ويتركهم للعراء، نعم قطعَ اللصوص خصيته وأصابعه ولسانه، ثم تركوه وحيدًا بعرض الطريق ينزف ألمه؛ لاعتقادهم معارضته سرقة جلود الجزمجي ابن حارته.

تدوس الذاكرة وتضغط على روحي، فأرى نفسي أجري بعيدًا بعد عجزي عن فهم مغزى عملية الحسرة التي قام بها عميان في ليلة سوداء.

وضعوني على سرير نحاسي أبيض، وهي تبكي بجواري وتقول: "ماتخافش يا ميمون هيشيلوا المرارة يا بني، هتخف وتبقى عال العال".

بعد أيام من هذه الجراحة، فقدت التواصل، ونسيتُ جروح أبي الذي أزهق رمقه الأخير بين أحضاني.

تجاهلت حشرات البيت، وأصابتني علل لا حصر لها، لكنني

قاومت انشغالها عني بالقفز داخل قُطْر لا تزيد مساحته عن بطن قدمي، والدوران برقبتي على موسيقى لم يفهموها، والغناء بعشرين لغة وبنبرات جنائزية لم يسمعوها.

كل ليلة وبعد انتهاء مديحي مع كائناتي، تحملني "حزينة" من فوق الحجر الذي أجلس عليه بجوار حمار "شُرُك"، وتدخلني الحمام لأتبول، وتجرني لحجرتها، وتمددني إلى جوارها، تمسح رأسي، فأشعر بالأمان وأنام غير عابئ بالجراحة والعملية وجيراني الذين فقدت معنى اختلاف عيونهم منذ رؤية ظلامهم في أعماقي.

# (12)

أهرب من يومياتي، وأدخل شقوق أحلامي، وأجري سريعًا ناحيتهم خوفًا منهم أو حنينًا إليهم، يندفعون ببراءة وسلاسة داخل روحي، ليفزعوني، ثم يطيبون خاطري.

يأتيني "شُرُك" في لباس جديد، كأنه فلاح يحرث أرضه البور، لكنه يتفاجأ بلصوص أفذاذ يحيطون بحقله، ويصنعون لأنفسهم منزلًا من أخشاب الكافور، ويجلسون في ردهته حاملين البنادق.

يقترب من شباك منزلهم المفتوح ليبلغهم بأن هذه الأرض ملكه، وأن هذا الزرع هو ناتج عمله، يقترب أكثر، لكنهم لا يسمعون صوته، فيهددهم، ويخرج أحدهم من باب المنزل حاملًا بندقيته، ويسير في اتجاهه.

يتراجع "شُرُك" حتى يصل إلى حافة الترعة، ويعبر القنطرة الضيقة بظهره إلى الطريق الواسع، لكن اللص يواصل سيره في اتجاهه، فيمسك البلطة ويلقيها ناحية وجهه، فتفلق جبهته ويرتمي في مياه الترعة مصروعًا.

يتشجع "شُرُك"، ويتفاجأ بإخوة له يتشجعون، يحاصرون بيت اللصوص الخشبي المصنوع من الكافور، ويقيدونهم في صمت، ويا للغرابة لم يقاوم اللصوص أو يرفعوا بنادقهم، أو يعترضوا، كأنهم تماثيل ورقية أو جثث محنطة!

يكتّفونهم ويحملونهم في عربة نقل ليسلموهم إلى المخبرين الذين ينعمون بالعيش في مبنى محصن بالعبيد، ويحرسه "خَرْيَة" الكلب وعشيقته "اصطفاف".

لكن "شُرُك" يتراجع، ويقول لإخوته الذين لا يعرفهم: "لا يُمكن تسليم اللصوص للأوغاد؛ لأنهم سيعترفون علينا بأننا قتلة"، ويقترح عليهم أن يعودوا ويدفنوهم أحياء.

تلتهب الفكرة في رأس إخوته، فيهرولون إلى الخلف، ويحفرون بئرًا كبيرة مكان منزلهم الخشبي، ويدفنون أنفسهم مع اللصوص بداخلها.

ويبقي "شُرُك" وحيدًا على حافة الترعة، سعيدًا بالتخلص من كل ماضيه وحاضره.

لكنه لا يتوقف عند هذا الحد، أجده يجري أمامي منطلقًا، ويستدعي أحد إخوته المجهولين من الموت، وينزل معه بئر ساقية مظلمة كي يصطاد الأسماك.

لكنَّ أخاه يتفاجأ بامتلائها بالثعابين، فيخرج ويجلس على

حافة الترعة، ويترك "شُرُك" يقاتل الأحناش وحده.

وحين نظف البئر تمامًا من بقايا الموت، استدعى أخاه ليعاود اصطياده مرة أخرى، لكنَّ ثعبانًا أسود شهق، وقال: "سممتُ المياه يا قاتل".

هرع "شُرُك" من البئر، وجرى بعيدًا ووصل إلى حارة مبهجة، وقابل امرأة عاهرة، قال لها: "أنا وحيد، وليس لي إلا ميمون أخي، وأمي حزينة"، سألها عن اتجاهها، فقالت: "ليس لي أحد سواك".

سحبها من يديها، وعاشرها وسط ميدان واسع، لا يهتم باعته بأصوات المرضى أو آلامهم.

قلَّبته على وجهه وظهره، وامتصت رحيقه، ثم غادرت تبحث عن "شُرُك" آخر تنفث فيه سمومها.

## (13)

يخترقني، ويجري في أحشائي، يخطفني، ويخفيني بمنطقة الشِّعبة المحاطة بالبرك، فأرتعب من الصمت المركون في هوائها.

أشجارها ساكنة، وزهورها متيبسة، وأغصانها جافة، وضلف شبابيكها مفتوحة لمنتصفها، ولا صوت لقطة لقيطة أو كلب أجرب.

أراقب من شبابيكها رءوس رجال ونساء وأطفال، يمشون في تأنٍّ، ويهمسون في آذان بعضهم، ويمسكون في أياديهم مصاحف وألواحًا مثقوبة.

شاهدتُ أحد شيوخها يبكي بحجرة نومه أمام ابنته كي تغفر خطيئته، سجد على الأرض، ووعدها بزيارة الحجر الأسود كي يمحو ذنوبه.

تدللت عليه وقالت: "لا تَبْكِ يا أبتِ، أنت لبيت رغبتي، ولولاك لقتلني شيوخ الشِّعبة".

تلوَّت أمامه تشتكي مَن خلقها دون غشاء، صرخت تستغيث، ودخلت عليها عشرات البنات العرايا من حجرة مجاورة، كاشفات عن فروجهن المهتوكة من رجال بشنبات وذقون ادَّعوا أبوتهم.

تركتهم، وتنصتُّ على شباك "وسيم"، رئيس الشُّعبة الذي كنا نخاف من هيبته أثناء خُطبِه التي ألهبت ظهورنا.

سمعته يرتب مع الشيوخ كيفية رفع قضايا على العصافير التي أكلت بذور الحب من غيطان الفلاحين.

كشفوا عن قضبانهم المنتصبة، وتحسسوها بنشوة، وأشاروا إلى أحد عبيدهم ليجر فتيات يافعات من المناور، أخلعوهن ملابسهن، وقصوا فروجهن بمقصاتهم الصغيرة في جحود ونكران لطبيعة خلقتهن.

سرت وسط بيوتهم القليلة، وسمعت بعض شبابها يناقشون كيفية قتل المقاول الذي أخفى مفاتيح المستشفى داخل آبار سحيقة ورفض فتح بابه الذي ظل عشرين عامًا مغلقًا على مرضاه.

تجاهلوا أنين البنات وصراخهن بجوار شباكهم، وتندروا على شرفهن الضائع وخستهن الوضيعة لرضوخهن لرغباتهن الآثمة، واستأذنوا من شيخ المنسر الذي يجالسهم كي يلحقوا بصلاة الفجر.

جرت كل هذه الأحداث في ثوانٍ معدودة، ولم أشعر رغم ذلك بهمس أصواتهم، كأنهم يحيون بمقابر سرية لا يعرفها أحد، ومع ذلك وقفت مذهولًا حين حاصرهم "خرية" وبلطجيته، دخلوا من أبوابهم المفتوحة، وسحبوهم إلى سياراتهم المعلبة في أدب، ولم يتركوا بمنازلهم إلا الكراكيب.

دخلت بيوتهم التي علقوا على حوائطها مصابيح مظلمة ولوحات ميتين ومدافن، توقفت كثيرًا أمام صوت البوابات القاتم المغروس في حوائطهم.

لا يمكن أن تكون هذه بيوت الشُّعبة التي أملنا جميعًا دخولها لنصبح أفندية نعلم الدنيا لغة السماء وعلومها.

هذه مقابر، وساكنوها أشباح فرَّت من جهنم.

خرجتُ مرعوبًا من حجراتهم الموحشة أبغي رؤيته، لكنه اختفى من الوجود، رغم أنه هو الذي ساقني إلى هنا.

فوجئت بــ "شُرُك" يركب بجوار "حزينة" على عربته، ويدخلان أزِقَّة الشُّعبة كاللصوص.

كانت "حزينة" تبكي لاختفاء ابنها العاجز، لكن "شُرُك" فتح الثلاجات وحمل اللحوم والخضار فوق حماره، وأعطى أمه ثمرة تفاح، قضمتها، فعادت الضحكة إلى وجهها، ونادت بعلو الصوت: " أنت فين يا ميمون؟".

لم أتمكن من الرد عليها، رغم اختفائي بين الأدراج والكتب التي تجلس فوقها، وتسحبت بصعوبة من بين أقدامها، ووقفت أمامها، لكنها لم ترني أو تشعر بمأساتى؛ لأن طعم التفاح كان يشع رحيقًا أذهل روحها.

جرى "شُرُك" ناحيتي، وحملني على ظهره، ونادى عليها: "لقيته يامَّه، ميمون في حضني، متعيطيش".

ألقاني في حجرها، فقبلتني، وقالت: "خير اللهم اجعله خير"، نزلت السلالم تبكي، وركبت بجوار ابنها في العربة الممتلئة بخيرات الله، وسارا وسط البيوت المهجورة سعداء برجوعي.

# (14)

أتقلب على بطني، وأحاول التلصص على أنفاسي، لكنهم رحلوا وتركوني، ومع ذلك أشعر بسطوع الشمس، وأنين أصواتهم، فأندهش من استمرار وجودي في هذه الحياة.

يدفئني ببكائه، ويسألني بحزن: "ما الذي دعاك إلى الرحيل وخلع ملابسك؟ وعمَّ كنت تبحث؟ ولماذا لم تجلس مثل رفاقك في البيوت الآمنة تنتظر الرأفة من الأهل؟".

لماذا غادرت وحيدًا، وواجهت مراكبهم الغازية، وأمواج بحورهم الهادرة؟

لا.. أنت تخدع نفسك لأنهم لم يواجهوك، واكتشفت وحدك بعد خروجك من الحبس والنظر وراءك، أن خيالاتك كانت وهمًا.

لا.. لم يتركوني إلا جثة هامدة، صرعوني، وبصقوا على وجهي وغادروا، وعشت سنواتٍ في هذا السجن، أخدم على رواده، على أمل أن يطلقوني يومًا ما.

ها قد عدت للمراوغة؛ لأنك تتناسي كعادتك أنك رميت كل قصاصاتهم في المصرف "الآخذ"، وتركتهم أسرى غدرك.

أنت اليوم غير مؤتمن على نفسك، فيجب إخفاؤك حتى لا تفرمك الوحدة، وتنتقم ذاكرتك المهترئة من ضلوعك.

عليك في الفترة الباقية أن تسايرهم وتنسى، فالمستقبل المجهول يمتلئ ببيوت لن تراها، بيوت مملوءة بالأمل والرحمة، ولا يعرف ساكنوها معنى الكلام.

فاركض مثلهم كي تحظى بالمتعة، لا تخرج عن القطيع، ولا تسمع صوتي، فالمحرومون ينتظرونك على قارعة الطريق، كي تصارعهم، أو تستكمل مشهد الفرجة، والدخول في حلقة خالد الذكر.

لا تضيع الفرصة الأخيرة، فالعملية جاهزة، وتحتاج منك إلى المثابرة.

لا يهم كل ما فات؛ لأنها أوهام، لا يهم كل ما يأتي؛ لأنه مجهول، فقط عليك مواصلة الركض والرقص على أنغام الجنون، لتفهم أحاسيسهم.

اطمئن فلن يسمعك أو يراك أحد، فهم مشغولون الآن بتصنيف الموتى، ولون دمائهم العذب، سيقولون بثقة لعيونك الجاحدة: "تزوج واعمل بجهد وكلل، وإلا فستقف على حافة

النواصي تلاطف المارة، وتسألهم عن معنى الحيرة".

ستقف النساء الحزانى أمام وجهك النضر، وتنصحك كي تعانق أول امرأة تقابلك وإلا اتهموك بالعجز، فالمدينة مليئة بالبراغيث والأحناش، ويجب الزواج والنوم بين جدران أربعة في حضن امرأة وحيدة للأبد، ولن يحميك من ملاحقاتهم، إلا ظل كائن ميت مكتوب اسمه في هويتك.

الآن، لا يهم أي شيء ما دامت اليمامة معك.

نعم رافقتك طوال الرحلة، ولم تغب يومًا عن عينك، وُلدتْ في نفس يومك، وعاشتْ في نفس بيتك، وتظللت بأشجارك، لكنك غدرت بأغانيها، وخرجت من سربها إلى مجهول أنت تعرف أنه سراب.

أتتذكر لون ريشها البني، وعيونها المسالمة، ومنقارها الرقيق، وأرجلها المتناسقة، وغناءها كل صباح: "كوكو كوكو؟".

رغم أنها كانت الشيء الوحيد الباقي، لكنك أنكرتها، كي يستمر بحثك الفاشل عن السر الذي عاهدت نفسك على اكتشافه قبل رحيلك.

جعل جنون رحلتك ينسيك أولادك، ودينك، وسلطان أبيك، وحبك لأمك، ففقدت مهنتك، وعشت مثل البواقي أرزقي.

بنيت أسوارًا عالية حول ذاتك، حتى فقدت نعمة الإحساس بهمس الحشرات التي تملأ حجرات بيتك الواسع.

ومع ذلك أوفت اليمامة بعهودها، ولم تتركك أسير الظلام، غردت على الأشجار، وداخل المناور، وعلي شطوط الترع والبحار، وفي كل مكان كنت تصل إليه، ولم تهتم بتنقلاتك المجهولة وسط الموتى أو بين الأحياء.

رافقتك لتحافظ على عهدها بحمايتك، ورغم ذلك عدت إلى حوارٍ لا تعرفها، ولا تفهم ساكنيها، رغم ادعائك بأنك رب لعائلة منسية، أسماؤهم: "شُرُك" و"حزينة" و"ميمون".

# (15)

لماذا تأتونني كل ليلة أيها الغجر؟ أتتشفون في بلوتي، أم تسخرون من حالي؟

تأتونني كملائكة طيبين، بعد أن ظللتم خمسين عامًا تطاردونني، تأتون لتباركوني، وتمسحون الدم عن عيوني، نعم أسمعكم، وأراكم أيها الأوغاد، يا من حرقتم الدفء وسرقتم الطيور من سمائي.

كنت صياد سمك، أجلس طوال النهار على شاطئ النهر، أبغي رزقي، كانت العصافير والهداهد تعزف ألحاني، وتلازمني كي تشدو روحي بعشق الطبيعة.

الآن أمسح دموعي، وأخطُّ على السماء بمنقاري الجاف، فتسخر الكائنات من ريشي، وتلتف حولي الحشرات، لتبدأ مع وحدتي يومًا جديدًا لا أرغب في استكماله.

أتجاهلها وأشد من أزر نفسي، وأخرج من باب البيت، وأرمق الرقم المعلق أعلى الحائط: "واحد حارة الرحمة".

أستكمل خطواتي، وألامس قلبي، وأري "شُرُك" يجلس على المقهى يلاطف المارة، يتجاهل وجودي، وينادي على القهوجي، يحاسبه، ويسب الدين، ويقول: "يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم.. إيه الصباح الأسود ده".

أتنصت على نبرات صوته، وأراقب خطواته حتى يقفز فوق العربة، ويصرخ: "شي يا حمار يابن دين الكلب".

العواصف تهب فجأة، وتتحول الحارة إلى مغبرة، ومع ذلك يخرج "ميمون" إلى الوسعاية، يلملم أوراقه ويدفنها في صدره، ويعود مرة أخرى كي يجلس أمام منزلهم، ويقوم بمهمته التي لا يعرف غيرها.

تجلس "حزينة" مفجوعة أمام البيت، وتنادي على المارة كي يسندوها لتدخل حجرتها خوفًا من الهواء الأصفر الذي أخفى لون السماء.

اليوم أنا متيقظ، وغير عابئ بالعفاريت التي تسد طاقة السور، أشعر بابتسامة القهوجي وهو يغالط الجزمجي في الحساب.

نعم أنا متيقظ، هاهي "مخروقة" رفيقة "العربي" تمشي وسط الحارة، وتتمخطر بعباءتها في غنج، تمضغ لبانتها وتتباهي، وهي ترمق عيون الصبية الواقفين على النواصي تخرم جسدها.

لكن الحارة تمتلئ فجأة بالرصاص: "من هؤلاء؟".

يرد الجزمجي بخوف من داخل مخزنه المدفون في الأرض: "هؤلاء هم المردة الذين يسكنون غرف الموت".

أراهم يرفعون جسد "صاصا" فوق أكتافهم، ويطلقون الرصاص من بنادقهم ويرددون: "سندهس أرواحهم قبل دفن جثته.. سنشرب من دم أبو هندية القاتل".

أتسحب إلى جوارهم محاولًا فهم ما يدور بينهم.

يحكون بنشوة عن قيام "صاصا" بذبح "رومي" ابن "أبو هندية" في طابونته، لرفضه تسخين خبزه البايت، في الليلة ذاتها حاصرت عائلة "أبو هندية" منزل "صاصا"، وحرقت أمه بملابسها، وخرمت جسدها بالرصاص.

لكن أهله وجيرانه قرروا الثأر، وهم يتجهون الآن بجثته إلى منزل "أبو هندية" وطابونته.

لم يمتثلوا لصوت العقل، وتجاهلوا لحية "وسيم"، وتوسلات القهوجي، وتهديدات "خرية" وعشيقته "اصطفاف"، وهاجموا منزل الطابونجي، ومزقوا جسد ابنه وحرقوا أثاثه، واستأجروا اللوادر وهدموا طابونته وعجنوا بلاطها المدشوش في دقيقها.

لم أهتم باستكمال حكايتهم، وعدت إلى حجرتي سعيدًا

بيقظتي، مندهشًا من عودتي، ها أنا أتعرف عليهم من جديد، ها أنا شخص مختلف عن الشخص الذي يلبسني منذ فترة، ويحولني إلى طيف يداعب وحدتي.

أجوب شقتي الواسعة ولا أجد أحدًا، أفتح باب الثلاجة، وأقضم قطعة كنافة، وأجلس أمام التليفزيون، وأشاهد الأغاني، وصور الفنانات البارعات في الرقص.

أجري إلى البلكونة وأفتحها، وأنظر إلى الشارع المفتوح على حديقة تنتهي بسور ملفوف على بيوت المنتجع كمعسكر، أراقب محلاتهم مندهشًا من النور الذي يلف وجوه الفتيات اللائي يتحدثن بحب إلى أقرانهن.

لكن أين زوجتي وأولادى؟ ولماذا تركوني وحدى؟ هل ذهبوا لزيارة أحد أقاربهم؟ ربما يعودون في المساء، ربما يبيتون هناك، لكني خائف ألّا يعودوا، فمن يعطيني حُقَنَ البنج إذا فعلوها الأوغاد؟

ورغم ذلك فإني أشعر بالسعادة، ها أنا مرة أخرى أحيَى بين جيراني، وأشعر بأصواتهم ترجُّ حجرات البيوت وسلالمها.

أدخل الحمام، وآخذ دشًا ساخنًا وأغطُّ في نومي، فيأتونني كالأشباح، ويسخرون من سعادتي، ويقولون بغلّ: "يا عبيط إيه اللي رجعك؟!".

أتحاشى النظر في عيونهم وأستكمل نومي، فيخلعون ملابسي، ويرددون: "لسه واعي ومركز، سعيد ولا همك القتل اللي شغال، والنار اللي بتحرق الزرع، حاسس ببراميل الدم، ولا خلاص قلبك مات، مبسوط بأنك هربت لخيالك، طب تعالى وشوف اللي بيحصل في حياتنا، تعالى ومتندمش على صحوتك".

تجاهلتهم، وقلت لنفسي إنهم عملائي الذين يرغبون في مكوثي بوحدتي كميت.

لا.. سوف أستكمل نومي، ولن أهتم بوجودهم.

وضعوا أصابعهم بمؤخرتي، وألقوا على رأسي من السقوف كراتين ذخيرة وبارود، لأشعر بحرق أعماقهم وجفافها، وسمعت أحدهم يردد بسخرية: "ده مات يا جماعة وشبع موت، واحنا كنا فاكرينو حي بيتفرج علينا وبيراقبنا، عشان يعرف أسعار الكلفة، ويسرق عمولتنا، والله مات ومفيهوش ريحة النفس".

داسوا على صدري وبطني، ولم أعبأ بأظافرهم الغليظة، لكني فتحت عيني من الألم، فشاهدت ألوانًا غريبة تملأ سقف حجرتي، ألوانًا ونقاطًا زاهية كأنها دانات ورءوس بشرية تتساقط على سريري.. رءوس مملوءة بالعيون المغلولة، وتمسك السكاكين، وتهددني بعدم الاندماج مع أصدقائي وإلا قطعوا خصيتي.

قمت من سريري، وشعرت بوجوده، كان يتحدث بحزن عن عملية المرارة التي أدت إلى فقدانه التواصل.

احتضنته، ودخلت المطبخ، أخرجت قطعة جبن قديمة وغسلتها، وجلست إلى جواره على كنبة الأنتريه أشاركه تذوق ملوحتها.

# (16)

اجتاحني، وتحنجل أمامي، وكتب جملًا كثيرة على الحائط وقال: "اقرأ".

حاولت فصل الحروف داخل الكلمات، وتساءلت: "ماذا يعني حرف الخاء المتكرر؟".

نهرني: "اقرأ".

كان السطر يختفي، ويعود بألوان زاهية، وتنطفئ بعض كلماته وتضيء، لكن فواصل الجمل تشابهت على ذاكرتي.

زجرني، وهرول في خلايا دمي، فسألته: "من أنت؟".

ضحك عن آخره وقال: "أخيرًا نطقت".

افترس عقلي بأصابعه، وشجَّ قلبي، واقتلع أحاسيسي بعنف، فصرخت: "آه، آه".

فقال: "أخيرًا شعرت".

اختفى وعاد، ودار حولي، وألقى بنصائح وخرافات في وجهي، لكن لساني عجز عن مبادلته الرد.

كنت أتلوَّى كالثعبان وأنتفض، وأكرر نفس الحرف: "خا، خا"، انكمشت في روحي محاولًا قراءة الكلام المتسرب من عقلي، أتواصل معه للحظة، وأفقد علاقتي به في نفس اللحظة، كأن داخل عقلي مصابيح تنطفئ وتنير دون توقف.

صرخ وشدني أو خطفني لساعات أو لأيام، ودار بجسدي المهتوك في المواني والقرى، سخر من ضياعي، وعاد آخر الليل مدهوشًا من سماعي صوت اليمامة وشعوري بطعم البحر.

لا يهم كل ذلك؛ لأنني تيقنت أخيرًا من رحيله، تركني في انتظار الموت وركب قطاره دون وداعي، لا يهم الآن مَن ضدي ومن معي، المهم ألَّا أُريه وجهي حتى لا يهاجمني فجأة ويغتال حياتي الباقية.

لكنه يعود في نفس اللحظة كالفارس مصلوبًا على حصانه، أشاهد عقله المنظم يتَّقد ويندفع في قلبي كرصاص مصهور، يقطع شراييني لأنساهم، يحملني على جناحه، وينزل في مدينة بعيدة، ويركب معي عربة مملوءة بالبشر، ويدخل في بلدة ممتلئة بالحدائق وتطل على نهر مالح.

نغوص داخل الغريقة، ونصطاد الأسماك الملونة، ونلقيها

في الطرقات كي يحملها المارة إلى منازلهم سعداء بصيدنا.

يرفعني من البركة بملابسي المبلولة، ويحمّمني بمياه دافئة تسيل من طاقة السور، يلبسني بدلة كاملة، ويضيق حزامه الملون على رقبتي، لأبدو كالأبله، يملأ جيوبي برزم النقود، ويتركني بين أضرحة تصدح دكاكينها بموسيقي وأغانٍ لم تسمعها أذني قبل مجيئي إلى هنا.

حاولت استرجاع صوت اليمامة وغنائها، لكن المارة أحاطوني وطالبوني بالثمن، كنت أدفس أصابعي داخل رزم النقود، وأسحب منها الوريقات بمهارة، وأسلمها لأياديهم في ودّ، حتى أفرغت كل حمولتي.

ومع ذلك هاجمني أربعة أشخاص لا أتذكر ملامحهم، قطعوا وجهي، ونزعوا بنطالي، وتركوا جثتي النازفة بعرض الطريق.

ناديت على النساء اللائي يزيّنّ الشبابيك بشعورهن الملونة، ونهودهن البضة، لكنهن لم يسمعنني، فتعكزت على العرجاء، ومسحت الدم عن أنفي، وتوعدت الجميع بالقتل.

اقتربت امرأة عجوز شَبَه "حزينة" من جسدي المنهوك، كأني قطعة لحم دون عظام، سحبتني من يدي في صمت، وتركتني وسط كراكيبها، وخلعت ملابسها بجوار سريرها، وتمددت عارية.

فتحت بين قدميها، وأمسكت قضيبي، وأشارت إلى فتحتها الغامقة، وقالت: "ضعه هنا.. لا يهم أنك لا تشعر أو تحس، تذكر صوت اليمامة وغنِّ مثلها.. اغرسه بقوة بين فخذي، واعتبرني مثل المرتبة التي تنام عليها".

فرحت بالفكرة ونمت عليها، وفجعتها، وعند انتهاء الليلة اكتشفت أنها مرتبتي الحزينة التي تحملت جسدي سنواتٍ دون سماعي صوت شكواها.

لكنه لم يرتح لهزيمتي، اجتاحني، وبحث عني في قاع أعماقي، وحملني من وسط الأضرحة التي تحولت إلى عمارات شاهقة، وطار فوق أسوارهم ليخفف أعبائي التي مزقت روحي ودمرتها.

تمددت الأسوار حولنا كأنها في صراع مع أجنحته، لكنه توقف دون إشارة، ومر من طاقة صغيرة انفتحت في أحد الجدران، ودار برأسه يغني في صمت وسط فضاء مضاءٍ بلون شبيه بالندى، وسار على المياه التي يشع بياضها بدخان أبيض ناصع.

وضع يديه في أعماقها، وأخرج سمكة كبيرة بحجم جبل الموت، وأجلسني بجواره على رأسها، وتركها تعبر المحيطات والبحار في هوادة.

سرنا مسافاتٍ طويلة كأنها دهور، وقبل خروج النهار،

حطت السمكة بالقرب من جزيرة مملوءة ببشر ضاعت ملامحهم، أنزلني على شاطئها، وركب عائدًا على ظهر سمكته التي تسحبت إلى القاع بزعانفها الضخمة.

جلست وحيدًا وسط النور الذي يملأ الجزيرة ببكارته، ولم تشعر كائناتها بوجودي، أعادتني تلك اللحظة إلى يوم مولدي، قبل حرق أحاسيسي.

يومها فرحت "حزينة" بطلَّتي على الدنيا، وشعرت بشعاع وجهها الطيب الرقيق يعود إلى جواري، لكن الموسيقى التي عزفتها تلك الكائنات التي لا تتكلم أو تسمع، جعلتني أتمنى الموت، ونسيان وجوه كل من أعرفهم، للعيش هنا، في جزيرة الصامتين.

# (17)

أيامًا طويلة أو سنوات، عشت مثلها، أصحو من نومي، وأرقد على الحشائش، وأنظر إلى السماء في رضا.

وفي ليلة مرعبة ألقت علينا السماء بالوطاويط الميتة بقيادة امرأة تُدعَى "اصطفاف"، تلامس أطراف أصابعها أجساد الصامتين في عهر، فيعودون إلى الحياة، ترفرف بأجنحتها الذبيحة باحثة عن مشاعرهم المخبوءة وتغتال براءتهم.

وفي غمضة عين امتلأت الجزيرة بأناس وبشر يطلقون عليهم صناديد، جمعوا البشر الصامتين من حدائق الجزيرة، وربطوهم بحبال غليظة، وأمروهم بأن يصطفوا كأسنان المشط، وألقوهم في المحيط.

استثنوني من المجزرة لسماعهم أنين آلامي، فعرفوا بأنني غريب يجب الاحتفاظ بصوته، وحبسوني.

في الأسْرِ، تعلمت معايشة النمل والصراصير، ومسحت بلاط الحراس، وطهوت طعامهم، ونظفت ملابسهم، وخففت أحزانهم، ولمَّعت أحذيتهم، عندما كانوا ينظرون إلى ساعة

الحائط التي تعلن انتصاف الليل، يصدرون أوامرهم بإشارات بذيئة ليعفوا عني كي أبتهل وأشكر رب العالمين بأني ما زلت حيًّا أرزق.

لكن "اصطفاف" لم يعجبها استسلامي، وتصورت على غير الحقيقة بأنها حيلة مني لأتخلص من عذابها.

أمرت الحراس بملء زنزانتي بالخراء، حتى لا أتمكن من النوم كل ليلة بضع ساعات وأحلم بأحبابي الذين يدفعونني لتحمل خدمتهم.

كنت إذا جاء الليل وأغلقوا زنزانتي، أقف مصلوبًا على الحائط، وأغمض عيني، لأرى في مواجهتي طاقة منيرة في السور، أتسحب بين شعاعها، وأهرب إلى الحارة التي يقيم فيها "شُرُك".

نعم كانت هذه اللحظات أو الساعات التي أعيش فيها مع هذه العائلة هي أملي الوحيد للبقاء.

في هذه الليلة عبرت إلى الحارة، وجريت وسط المدافن والحواري، أبحث عن "حزينة" وولديها، لكني لم أعثر عليهم.

هرولت ناحية مخزن "العربي" أبحث عن "مخروقة" لأسألها، لكن المخزن اختفى من الوجود.

أين رحلوا؟ أيجوز أن يكونوا مختبئين وسط الكراتين وأكوام

القمامة؟

رفعتني أقدامي، وطرت فوق عششهم، لكني لم أعثر على خرابات، كانت البيوت والحواري كلها تتشابه في أعماقي.

لا.. ليست هذه حارتي التي تعرفني، وتمدني كل ليلة بالعشق لأتمكن من استكمال حياتي في خدمة "اصطفاف" وجيشها.

عدت سريعًا على صوت طرقات الباب، فتحوا زنزانتي، وقال كبير الحراس: "يمكنك أن تدخل الحمام يا شُرُك".

لم أصدق صوته، وكدت أسأله: " أتعرفني؟".

لكنه استكمل: "أمك حزينة، وأخوك ميمون في الزنزانة المجاورة، لا تخف على حياتهم".

كدت أسأله عن سبب وجودنا في هذا المكان، لكن عساكره لطعوني بالكرابيج على ظهري، فانحنيت أكثر، ودست على العرجاء، واستكملت سيري صامتًا.

سمعت صوت "ميمون" يغني مع يمامتي الحزينة، فاطمأن قلبي، وقررت استكمال مقاومتي.

حمموني، وألبسوني ملابس نظيفة، وأدخلوني على مليكتهم التي جلست على كرسيها المرصع بخواتم وسبح وغوايش زاهية، لكنها لم ترني، وواصلت ابتهالها مع ربها الذي ينام

فوق عرشها آمنًا.

عندما شعرتْ بوجودي تغيرت ملامحها، وسألتني: "لماذا هربت من المستشفى؟"، تجاهلت صوتها ونظرت مبتسمًا إلى الشيشة التي في يديها، وتمنيت أن آخذ نفسًا واحدًا منها.. نفسًا يعيدني إلى الوسعاية أمام حارة "حزينة"، لكن الحراس لطعوني بالكرابيج، فقلت للملكة الشبيهة بصورة زوجتي المعلقة على الحائط: "أي مستشفى؟".

شخرت وسبت الدين، واستدعت "مخروقة" من حجرة مجاورة، فلافت على مشاعري ولامستني بنهدها، فعدت إلى حقيقتي؛ وعرفت أني "شُرُك" وأن أمي "حزينة" تنتظر عودتي.

سألتني بغلّ: "هل تنوي العودة مرة أخرى إلى جزيرة العميان، لتسمعهم صوت آلامك؟ ألم نُزِلْ نقطتك السوداء لتتواصل مثل الباقين معنا؟".

اقترب كبير مستشاريها من وجهي، ورمقني كحكيم، ووصف حالتي لجمع من الدراويش حوله قائلًا: "معاق ويعاني من اضطرابات، روحه مملوءة بالقلق، ويتواصل معنا نهارًا، ويفقد عالمنا ليلًا".

وانبرى أحد وزرائها مستكملًا: "هذه حالة عجز مزمن"، وتساءل: "كيف يمكن لمثل هذا المشوه أن يقاوم، إلا إذا كان

يخدعنا بدوران رأسه، وعض يديه؟ إنه حالة نادرة يجب الاحتفاظ بها وإجراء التجارب عليها".

تحدثوا عني بطلاقة، وأنا مشغول بحلمات "مخروقة" التي أضحت ملامسة جسدها حلم حياتي الأخير.

لم أستجب لأسئلتهم، أو تهديدات مليكتهم، فأحضروا "ميمون" من زنزانته، وألقوه مضرجًا في دمائه أمامي، فانتفضت وصرخت: "كيف هان قلبكم لتعذبوا طفلي العاجز البريء؟".

لم يسمعوني، وانهالوا بالكرابيج على رأس "ميمون"، كان قلبي يصرخ، وهو يفتح فمه ويغلقه، ويبكي بحرقة.

كان يحس بالألم والبغض، وهو يراني عاجزًا مثله، أكان يبكي لعجزي أم لعجزه؟! أرجوك يا "ميمون" اغفر لي وسامحني.

لو كانت لي قدمان سليمتان، لو فكوا قيودي، وهدموا الأسوار من حولي، لكنت حملتك وقفزت بك من طاقة السور إلى جزيرة الصامتين، كي تعيش معهم باقي عمرك في سلام.

# (18)

طار بعيدًا بطيفي، وحطَّ وسط كائنات تشبه النخل العالي، وتشعُّ من جذوعها نورًا صافيًا.

ضغط على خراجي ليذكرني بفقدهم، أعادني في لحظة خاطفة إلى نفس المكان الذي توقفت عنده بعد خروجي من أسوارهم.

حفزني لأواصل سيري وأستمر، حاول رفع أقدامي من مكانها، لكنني نهرته ببغض، مع أنه كان يتمنى سلامتي، رفضت وسوساته بعنف، وقلت بطريقة أبعدته: "انتظر، ليس الآن".

دخلت دون إرادتي مرة أخرى إلى حجرتهم، ودرت في أركانها، كانوا هنا، أولادي وزوجتي وأصدقائي وأهلي وعملائي وجيراني.. كانوا هنا، من أخذهم وهرَّبهم من جحيمي؟

لكن زوايا الجدران لم تردّ، وشاهدته يخرج من طاقة الحائط، ويدفعني للهرب.

وافقته ونزلت مكدورًا إلى الوسعاية، جلست على المقهى أسأل الرواد، تجاهلوني واستكملوا لعب الدومينو، ولم يهتموا بنهود الراقصة التي ملأت شاشة التلفاز.

كانت عيوني ترغرغ بالدموع، أين رحلوا؟

قمت مذهولًا متجهًا إلى الخرابة، وهناك وجدته يفرغ حمولته، ويدوس بصعوبة على العرجاء، ويسب الدين كعادته.

لم يرني، أو يهتم بأصوات اليمام التي تحلق فوقه، كان مشغولًا بعليقة الحمار وحلاوة "ميمون".

لم يهتم بخزعبلاتي، واستكمل تفريغ عربته، وركبها عائدًا إلى الحارة.

كان "خرية" يتعقبه عقب كل مقاولة، ليأخذ نصف ما يكسبه، كان حلمه أن يعثر على حقيبة الأموال وسط الزبالة، ليهرب بـ"حزينة" و"ميمون" و"مخروقة" إلى جزيرة لا يعرفهم فيها أحد.

ظل يحلم ويحلم وهو لا يدري أن سرد الأحلام أمر غير مسموح به على هذه الأرض.

لكنه كان يقاوم، ويحلم كل ليلة بعد الاطمئنان على عائلته بطيف "مخروقة" التي لا تلين إلا للقرش.

حين وصل إلى الوسعاية ألهب كفل حماره بأمشته، وتوقف أمام بيت القماش، حمل مع أبنائه الرتش والروث المتراكم في أركان حجرتهم، وعاد إلى الخرابة، أنزل حمولته بضراوة وشجاعة كأنه في حربه الأخيرة.

عاد مرة أخرى إلى الحارة ليرفع بقايا جلود "بوشة" ودباغته، كَنَسَ مخزنه، ومسح بلاطه، ووضع رقع زوجته على عربته، ونظر إلى نهودها العارية واتجه بقمامتها مرة أخرى إلى الخرابة.

راضَي الخفير بجنيهاته الفضية، وعاد من جديد إلى أرض الشِّعبة، كنس بيوتهم وحواريهم، ورمق أجساد نسائهم البضة، وبلع ريقه، وسب الدين لحماره، ولم يهب "وسيم" شيخ الشِّعبة، وعاد إلى الخرابة للمرة العشرين كي يفرغ بقاياهم.

كان منهكًا عن آخره، فاليوم طويل والعمل لا ينتهي، وظل يحلم بـ"مخروقة" وهو يحمِّل رتشه وينزله، كي يجمع القرش فوق القرش ليشتري دواء "حزينة".

فعل كل ذلك، وأنت ما زلت عاجزًا عن نقل قدمك من الظلام إلى النور.

عاد طيفي كملاك، وتحسس بطني ومؤخرتي كي أُفيق وأصحو وأستكمل حلمي، لكني فقدت الرغبة والإرادة، فمن يستطيع أن يتمنى سوى الموت في هذه المدينة؟!

# (19)

كنت أعرف أن "شُرُك" ما زال نائمًا بحجرة "حزينة"؛ لسهره ليلة الأمس مع "بوشة" بمرافقة زوجته اللعوب.

تجاهلتُ شخيره ونور الفجر المتسرسب، وقفزت جالسًا على مؤخرتي، استدعيته لأسأله عن سبب بهجتي، فقال: "المطر يتساقط من السماء".

هرولت إلى الحارة، وغصت بقدمي في الطين حتى وصلت إلى النهر.

أعادتني اللمبات المضيئة فوق أعمدة النور حول نقاط المطر إلى روح الطيف الذي هرب من قسوتي، جريت إلى الشاطئ وخلعت ملابسي، ونزلت أحتمي بالطبيعة من رائحتهم.

لم أهتم بنظرات المارة التي اخترقت قلبي، سألوني وصرخوا وشهقوا، لكني لم أردّ، كنت في عالم آخر لم تطئه خيالاتي.

دخلت إلى حواريه وشعرت باهتزاز أعماقي واختطاف روحي التي طارت فوق مدن ومدافن ونفايات بشرية، ونزلت بجوار

بحر كبير، أمواجه عاتية وبراحه موحش، وهناك وجدتها تقف أمام العشة التي تمتلكها عائلتها كملكة.

أخذنا دشًا ساخنًا، ولم نهتم بالرعد الذي ينير السماء.

فتحتْ جهازها الصغير على موسيقى تعرف أنني أعشقها، تجاهلت نشوتها، وفتحت باب العشة لأشاهد السيول التي تلقي بأطنان المياه على الدنيا، احتضنتني من ظهري، واقتحمتني عاريًا، لتعيدني كملاك للرحمة.

سمعت أثناء معاشرتها صراخًا وعويلًا فقفزت من تحتها، وخرجت عاريًا للشط.

وجدت آلاف البشر يحملون لافتات ويهتفون بأغانٍ وجمل لم أفهمها، رفعوا صور رجال عميان داخل لوحات خشبية، وكتبوا تحتها أسماءهم بالبنط الأصفر، لمعت عيون المحمولين على الأكتاف، وضحكوا بأفواههم المفتوحة، كأنهم سيلتهمون المارة.

ردَّد حاملو اللوحات أسماء المحمولين في هياج، وألقى عليهم صبية عفاريت حبات الفول السوداني والترمس لينعموا بالشبع وطول العمر.

أسرتني عيونهم اللامعة، فتركت ملكة العشش وسرت وراءهم، فلاحقتني عارية، وهي تشد أنفاس سيجارتها، ولم

يندهش حاملو اللافتات من منظرها واستكملوا سيرهم.

اقتربت منا امرأة عجوز، وزجرتها في فرجها، وأعطتها شاشة بيضاء لتواري عورتها، وفي نفس اللحظة اقترب رجل أبرص من جبيني، وقال بصوت عالٍ: "يا بختك يا عم".

نظر إليها بشهوة أفزعتني، واستكمل: "عايز يحطك في شِوَال يا بت يا "مخروقة"، ويبيع شبابك في سوق الكانتو".

الغريبة أنها صدَّقته، تركتني وسارت معه لاكتشاف الأبرص مكنونَ أعماقي، تجاهلتْ زواجه من عشر نساء قبلها، واعتقدت بأن لسانه لا يتفوه إلا بالحق، وللحقيقة فقد نطق بالحكمة؛ فكيف لامرأة مكتملة الارتباط بعاجز وحيد مثلي؟

تركتني عاريًا وسط المطر وهربت، لكن القدر لم يتركني بحالي، أرسل أحد أصدقائي ليطبطب على ظهري، ركع أمامي، وتوسلني لأسلِّفه مبلغًا صغيرًا كي يتمكن من إرسال زوجته إلى المصحة.

وضعت يدي في مؤخرتي وقلت: "لا أملك إلا هذه العملة".

لطعني على وجهي وقال: "كعادتك، لا يمكنك إغاثة محتاج".

عيَّرني بعهر "مخروقة"، ونكران زوجتي وأولادي، نظر بحقد تجاهي، واستكمل: "اللي ملوش خير في أهله ملوش خير في حد".

أعادني منظره الحزين إلى النهر، وتيقظت على صوت الصيادين الذين داروا حولي بمجادفيهم، وطالبوني بالخروج من المياه حتى لا أموت من البرد.

صعدت مراكبهم حزينًا على تقطيع أوصالي، كأنني أعيش داخل ثلاجة أدفن بها مشاعري وعروقي ونبضي وأحزاني، ومع ذلك رأيت على الشط أبي، وقف في انتظاري ببدلته الكاملة، أحاطه السماسرة والأغراب الذين جاءوا ليشتروا منزلنا الذي لا يعرف مكانه، نهرهم قائلًا: "أرض الشُّعبة متتقدرش بفلوس يا كفرة".

في تلك اللحظة خرج الشيوخ من الشقوق، وقالوا بغلّ: "بعها وريحنا يا وسيم، احنا قرفنا من الصلاة والعبادة، بيعها خلّي العيال تفرح، حرام عليك، بيعها، وكفاية علينا مخروقة".

تجاهلهم وسحبني من يدي، وجلس على المقهى المجاور لمنزلنا، وطلب من القهوجي شيشة، ولم يستحِ من قفطانه الأسود أو لحيته الطويلة، وضع إحدى قدميه على الأخرى، وشد الأنفاس من الحَجَر دون أن يعبأ بنهار رمضان، وقال للمارة بغلٍّ شعرت به كوخز في ضميري: "أيوه فاطر من غير عذر يا كفرة".

لم يهتموا بجنونه، ومع ذلك حين اختفوا بعيدًا، قال أحد أصدقائه بوجهي: "إذا ابتليتم فاستتروا".

نادى عليَّ الصيادون كي أعود إلى عالمهم، ألبسوني ملابسهم الجافة وزجروني كي أرحل إلى منزلي.

حينما اقتربت من الحارة شاهدته يقف على بابي، ويقول في أسى: "لماذا استدعيتهم مرة أخرى؟ ألم أقل لك قبل نزول المطر: لا تخف!".

طبطب على ظهري، ومسح طينهم عن وجهي، وجلس بجواري أمام المنزل، وحين شعرت بتفكك مشاعري، وتشابك عروقي، قمت مهرولًا وسط الحارة، أمارس مهنتي في جمع الأوراق المتناثرة، رغم ابتلالها بحبات المطر.

# (20)

تسحَّب داخل أوعية عجزي وقوَّاني، وساعدني للهروب من الحراس الذين ناموا وتركوا أبوابهم مفتوحة، دفعني لأصعد فوق الربوة البعيدة التي أشعر الآن بملمس ترابها.

نظرت حولي، لم تكن هناك إلا الحدائق، زجرني حتى لا أنظر ورائي وأستكمل سيري، وأستمتع بالبيوت الواسعة المملوءة أحبة.

رفضت.. نعم رفضت لأنني لم أفهم كيفية استكمال أحداث جرت في أحلامي بأحداث مغايرة تدهس واقعي، كنت كالأبله، وهو ينصحني ويؤكد لي أنه يجوز استكمال أحلامنا في واقعنا، والعكس بالعكس.

أعرف أنكم لن تسمعوني.. لكن لا يهم، فسوف أجرب طريقة أخرى بنفسي، فإذا نجحتُ يمكنني تغيير رأيي وتصديق أحلام هذا المعتوه.

سأعيش يومي العادي وأتوقف قبل نومي عند حدث معين، فإذا جاءني نفس الأشخاص في حلمي، واستكملوا الأحداث

التي جرت في واقعي، فإن ذلك دليل على تكامل أرواحنا، وبأنه لا فرق بين أحلامنا وواقعنا، يومها سأعيش مثلكم قانعًا غير مهتم بجرائمكم.

حين تيقن من إصراري على مواصلة حواري، تركني، فدخلت في روح "ميمون" وجلست بجوار "حزينة" التي تنتظر رجوع "شُرُك"، ودموعها تجري بغزارة على وجهها.

كنت أتمنى وضع يدي على رأسها وتحسس خصلات شعرها ومواساتها، لكني لم أتمكن لعدم تدفق الدم إلى لساني.

اقتربت "اصطفاف" منها وعزتها في غياب ابنها، وشعرتُ بأن "شُرُك" مات، فحزنت لعدم إحضاره الحلاوة الطحينية، وهزت العاهرة مؤخرتها، ولاكت بفمها في غنج، وقالت: "متقلقيش يا ختي، ناقص له كام يوم ويطلع من السجن، اجمدي شوية يا أم الرجالة".

خلال إقامتي معهم حاولت فهم لغتهم، لكنني فشلت، ومع ذلك علمت بأن العاهرة هي عشيقة "خرية" الذي يعمل "مرمطون" في قصر السلطان.

تركتنا وسارت وسط الحارة مزهوة بأساورها، تتنذَّر عليها الجيران، وضحكت زوجة الجزمجي في وجهها، وقالت: "سلمي على خرية بيه يا ست اصطفاف".

تجاهلت "حزينة" أصوات النسوة، وتركت أساها يسيل على الأرض، وحين رأيت ابنها يدخل من باب الحارة بعربته، قمت مفزوعًا، وكاد لساني ينطق لتوقف نحيبها: "شُك.. شُك".

جرت ورائي والدموع تنزف من عينها: "هاتولي ولدي.. انت جيت يا ولدي".

التمَّت الحارة عليهما، ورفع أحد جيراني لافتة كبيرة للإعلان عن فرحته، علقوا الكهارب، ووضعوا صواني البطاطس بين مذياع ضخم وتراقصوا.

لم أتمكن من الجلوس بجوار حماره وسؤاله عن يومياته الطويلة طوال فترة حبسه، ولم أستمتع بصوت اليمام.

الغريب أن "شُرُك" ترك الحفلة، ودخل حجرته مدهوشًا، لم يحضنّي، أو يعطني لفافة الحلاوة، دخل محمولًا على أكتاف جيرانه، ونام على الحصيرة وهو يصرخ من الألم: "آه، آه".

أين كان؟ ومن أوقع بجسده كل هذه الجروح؟ تمنيت وقتها أن عودته أو جروحه كانت أضغاث أحلام.

طبطب الجيران على رأسي، وواسوني في مصابه، ووقفت "حزينة" عارية الرأس في الحارة تدعو على الأوباش الذين مزعوا قلب ابنها، لم يسمعوها أو يشعروا بصراخها، كأن عقولهم وقلوبهم انشقت وغرقت أجزاؤها العطوفة في بحر

القسوة.

كنت أرغب في استدعائه، وسؤاله عن حقيقة الحلم أو وهم الواقع، لكنه لم يأتِ، وتركني وحيدًا، كأن أخي "شُرُك" لا يصارع الألم وحده داخل الحجرة.

# (21)

دخل الزريبة وسحبني متأسيًا لحالنا، تعجبت من قوة عضلاته، رغم عرجه، دعاه البرد القارس إلى لفّي في أجولته واحتضاني والنوم معي بجوار "حزينة" وعلي سريرها.

أدت المياه المتراكمة من مطر الأمس إلى خرم طاقة صغيرة في سقفنا، نزلت نقاطها الموزونة إلى جوارنا بانتظام، وشعرت كأنها موسيقى دافئة، رغم أسنان "شُرُك" المصطكة المتداخلة مع صوتها: "تك.. تك.. تك".

حينما غطت عيني في النوم، وجدت نفسي أقف وسط المحيط على ربوة مرتفعة وسط جزيرة تحيطها المياه من كل جانب، فجأة انفتحت السيول من السماء قاصدة إغراقي، شعرت بأن لحظتي الأخيرة قد حانت، فتجهزت لأتعرف على شعور الميتين.

لكنَّ لوحًا خشبيًّا طويلًا نزل من فتحة السماء، فغير خطتي، وشاهدت نفسي أصعد عليه بأقدامي كي أنجو بعد ارتفاع المياه إلى منتصف ربوة الجزيرة.

عاقني نزول المطر عن مواصلة زحفي، لكني عافرت بقوة، وسال دمي من باطن قدمي وجلدي على شقوق اللوح، واصلت مهمتي بإخلاص؛ ليقيني بنجاتي، وإلا فلماذا تدلدل اللوح؟ ومع ذلك انتابتني مشاعر مغايرة دفعتني للاستسلام للغرق، سخرت مني قائلة: "لا شيء في حياتك يستحق كل هذا الكفاح".

حين وصلت أعلى اللوح، وحاولت لمس طاقة السماء بأصابعي، أعادتني مياه الأمطار الغزيرة إلى الأرض مرة أخرى.

رغم دمائي النازفة وطاقتي الخائرة، لكنني نظرت بعتاب إلى الفضاء الذي منَّ على بلوح النجاة، وقلت لنفسي: "سأعاود المحاولة مهما كانت النتائج".

كنت إذا وصلت إلى نهايته أشاهد نفسي أتدحرج عليه وأعود إلى أرض الجزيرة مرة أخرى، واستمر ذلك شهورًا طويلة أو سنين، لكني لم أفقد إيماني بحكمة السماء التي أنزلت اللوح الخشبي في لحظة يأسي الأخيرة.

وسط هذا الصراع رأيته يسير بجواري متبخترًا، اقترب من وجهي ونهرني، واستهزأ بي وقال: "هتنجا.. وحياة أمك.. خلينا نشوف".

شق قلبي بمشرطه، وحاول امتصاص إيماني، لكنني

عافرت وصرعته، وأعادني طيفي في نفس اللحظة إلى شقتي الواسعة، وشاهدت زوجتي تعاشر جاري، وأبنائي يتسابقون على قتلي، وعملائي وأصدقائي يلوكون سيرتي كالجرذان.

كانت شقتي غريبة، كأني لم أعِشْ فيها قبل ذلك؛ حجرات مفتوحة على صالة دون أثاث أو أبواب، لا توجد جدران تعوقني عن رؤية كل من عرفتهم في حياتي، دارت عيني في أسقف الشقة فشاهدت خيالاتهم تجري مختالةً داخل المرايا، أعدتُ النظر إلى وجوههم فتيقنت من وجود طيفي ككائن مستقل داخل روحي.

سرتُ في المكان الفسيح المفتوح حمامه على مطبخه لأرى عيون الجميع بوضوح، تبول بعض جيراني أمامي، والبعض الآخر كان يعد طبقه الشهي، ابتسمت زوجتي في وجه ابنها، بينما ركبها صديقي من ظهرها.

كدت أصرخ أو أبكي، لكن قنوات التواصل المفقودة بداخلي أعجزتني.

اخترقَ أحلامي، وصرخ بوجهي وسألني: "هل يمكنك استكمال حلمك بعد رؤيتهم عرايا؟".

تيقظت وأيقنت بأنه لا فرار، يجب المرور من الطاقة والعبور إلى حدائق الجزيرة، يجب دخول بيوتها علَّني أعثر على أهل أو أصدقاء.

يجب فعل أشياء كثيرة، لكني فقدت الرغبة في استرجاع الحلم أو استكماله؛ إذ ماذا سيكون خلف جدرانهم سوى هؤلاء البشر الذين لا يشعرون؟!

سأبحث عن مكان آخر، مكان شاهدته في أحلامي أو واقعي يومًا ما، مكان أشبه بعالم منفي وسط محيطات وأحراش بعيدة، لا يوجد به إلا كائنات صامتة مبتهجة مسالمة، وتنظر للسماء بقبول.

نعم سأحفز كل طاقتي وأركزها للعثور عليهم، سأجمع كل أوراق الدنيا وقصاصاتها، لعل إحدى هذه الوريقات تكشف عن الخريطة التي ستبعدني عن هذا العالم إلى الأبد.

# (22)

عيَّرتني بعجزي كالدواعر، ورأيت في عيونها المتشفية سر هزيمتي، شدت أنفاس سيجارتها في سمو وقالت: "أيوه متقدرش تكمل أي حاجة، ودايمًا بتقف في النص وتعاند، ورأسك وألف سيف مش هنتنقل، زي ما يكون بتخاف من النور، من الوضوح، مبتقدرش تفرد خطوتك، وبتقاتل عشان متعديش لينا، وكأن حواسك وقفت هنا".

تجاهل طيفي صوتها الباكي، واقترب من صدري، وهزني كفرع شجرة ميت، كي تتساقط ثماري بسري المخفي، وأزيل حيرتها.

تسمرتَ بمكانك غير عابئ بأمنياته أو صوتها؛ لأنك تعلم أن ما يميزهما عنك هو اللسان، ومع ذلك لم تستكمل خطواتك لتهرب وتعيش مع يمامتك بعيدًا عن آمالهم؟

لا أدري لماذا لم أدافع عن نفسي؟ وأعتقد أن قدرتي وقوتي تكمن هنا، فكيف أنقل قدمي إلى أرض هشة رخوة، لا يعرف أهلها إلا متعة اللَّك، والركض في خطوط مستقيمة كأنهم

قضبان قطارات لا تحس أو تشعر بقيمة حمولتها.

الآن أتذكر سبب عجزي عن التواصل معهم وتوقفي غاضبًا في نفس المكان كالصخرة، والذي وصفته "مخروقة" بأنه طوفان يجتاح جوارحك، فتتسمر حريصًا على صمودك، كأنك في حربك الأخيرة، فلا ترى أمامك أو وراءك إلا قدميك المدقوقتين في الأرض.

ربما وقعت حادثة كان بطلها "خرية"؛ لأنني أتذكر أنه سلب الشجاعة في يوم قائظ من قلوب "بوشة" و"صاصا" و"أبو هندية" وخفير الخرابة.

يومها تجمعت الحارة وسط الوسعاية وهو يربطهم بأعمدة الجامع، ويلهب ظهورهم بسوطه، فيصرخون بشكل جماعي من الألم: "آه، آه".

ربما أصبحت مجذومًا لا أفهم إشارتهم منذ رؤيتي زوجات "وسيم" و"القماش" و"القرداتي" وهن يصرخن داخل البئر بعد خطفهن، وسرقة أصواتهن، فعدن إلى الحارة حليقات الرءوس صامتات، لا يعرفن أبناءهن أو آباءهن المجلودين.

يومها، وحين انتهي "خرية" من سحلهم، نادى بصوته الجهورى: "واد يا ميمون".

فقلت بصوت عالٍ: "أيوه يا سيدنا".

فسلخ لساني من اللغلوغة؛ لأنني كذبت عليهم كل هذا العمر، وادعيت الخرس.

ويجوز أن حادثة جمع فتيات الشُّعبة في الوسعاية، واستئجار غجر أفذاذ من خارج الحارة كي يفضوا غشاء بكارتهن بأقدامهم وأظافرهم، هو ما دعاني إلى العجز، ربما مزقت دموع البنات قلبي ودفنته في أعماقي لينكسر أمام استغاثتهن من التوحش.

ربما كل هذه الحوادث هي ما دعتني لفقد معنى أصواتهم ورنين الحروف على شفاههم، لكنني ما زلت أسمع صوت اليمام فوق البلوطة، ونهيق الحمار وهو يقترب من العليقة، فلماذا إذن توقفت ورفضت نقل قدميك خطوةً تالية وعافرت بضراوة كي لا تتواصل أو تندمج وتستكمل حياتك معنا؟

أرجوك لا تضغط على ذاكرتي أكثر كي لا أنفجر، أرجوك اعْفُ عنى؛ لأنهم خطفوا طيفي من حضني، لا تضغط أكثر لأنني أشاهدهم الآن يلقون بأعضائه على سير البابور كي ينقل طاقة الحياة إلى عقولهم المهتوكة.

# (23)

غافلني وذهب إلى منزل كبير الحراس، وعاد بزوجته التي رمقتني وقالت: "أرجوك أرني أعماقك ولا تخف".

حاولتْ مضاجعتي، ففجعتها، وعرفت منها طعم الأنوثة، أدخلت بروحي ريق اللسان، وهمست بفمي لترويني رحيق الكلام.

تواصلت مع جنتها، لكنها رفضت دخولي سحارة أسرارها، وأرادت إغوائي لأعمل "مرمطون" عند زوجها، وحين رفضت عرضها أحضرت "اصطفاف" التي تمايلت على جثتي برقصتها التي تجعل الحجر يلين.

رأيت في اللحظة نفسها "بوشة" وزوجته، وأهل الحارة يغنون معها أغانيها المفضلة: "الفلة في المنافلة" و"الصاحب اللي يتصاحب"، فابتهجت "صافى"، كما تحب أن يناديها جيراني، تلوّت على الأرض كحية، وقالت بحب في عيونى: "نط عليها يا خويا واسمع كلامها، افشخ وركك وانسى، دي مرات كبير الحراس، وممكن يقطعوا بتاعك".

فجعلتني كي تحرق رقعتي الأخيرة، داست على أعضائي، فخرّت طاقتي على السرير كزجاجة مخرومة، وحين تيقنت من إصراري برفض عرضها، استدعت زوجتي وأبنائي وصديقي الطبيب الذي يأتيني دائمًا ليحصل على سلفته.

أحضرتهم جميعًا، حتى "شُرُك" و"حزينة" شاركا في هذا المهرجان، وسحبتني أمامهم عاريًا إلى مخزن "العربي"، وهناك حبسوني في انتظار حكم رئيسة المملكة.

داخل أسوارهم وجدت "مخروقة" محبوسة في زنزانة مصَمتة بجواري، وافقتها على معاشرة خيالاتنا لأجسادنا من خلف الجدران، وبدأنا نطلق رحيق أنفاسنا كي نخفف قهرة الحسرة عن أرواحنا.

سمعتها تصرخ من النشوة، وأنا أقذف بالسائل الشبيه بالرغاوي على سلاسل السور فارتاحت جوارحي لهذه المتعة.

وحينما سمعت "يسرية" زوجة القهوجي صوت خلاعتنا، وشت بجريمتنا لـ"اصطفاف" التي استدعت كبير الحراس و"خرية" ليسحبونا إلى ردهة الجامع الذي شهد المجزرة التي خصوا فيها أصدقائي وأهلي وعملائي.

كتّفونا في أعمدته التي تطول السماء، ونادوا على أهل الحارة ليشاهدوا ذل العاهر وشبق العاهرة، ونزلوا بكرابيجهم على ظهورنا كأسياخ الحديد دون رحمة.

يومها شعرتُ بطعم العجز، وجاءني حزينًا على روحي، أدخل مصله إلى نقطتي التي توقف عندها دمي، وتوسلها أن تتفكك.

رحت في غيبوبة طويلة، وشعرت بنفسي كقرد مبغض وعدائي، لكنه لكزني في غيظ كي أعود من طاقة السور التي يعرف مكانها كِلانا، وأشار من بعيد إلى بيوت الصامتين كأنه يرشدني إلى طوق النجاة.

حاول التخفيف عني بلفافة الحلاوة، وضعها بفمي، وفم "مخروقة"، فنسينا كرابيجهم، ونظرنا إلى بعضنا وضحكنا، فأعطت "اصطفاف" الأوامر من جديد بإعادة جلدنا.

كان لطيفًا وهو ينظر إلينا غير قادر على حمايتنا، أو تقديم المواساة في دهس خيالنا وحرقه.

عندما رأيت دموعه المتجمدة في عينه وهو يدور برقبته، كأنه يبحث عن سرِّ أسرنا، تحولتُ مثلكم إلى عبد لا أسأل أو أعارض أو أمتعض.

أصبحت مسالمًا، وعاشقًا لأغاني "اصطفاف" التي أبدعت داخل أسوارنا بصوتها الرنان وإشارات جسدها الممحونة.

ومع ذلك ما زال يصرخ ويدعي أنني كاذب، رغم أنني جلست ليلتها أمام النار التي أشعلوها وسط الحارة، ورشوا

عليها بخورًا أعمانا جميعًا، وجعلنا ننط على بعضنا البعض، ونستمتع بفروجنا الشرقانة وقضباننا المنتصبة المدقوقة في أجسادنا كأعمدة الكُفْر.

كانت رائحة أعضائنا بضة، ولم نكن ندري من يضاجع من؟

تفككت أوصالك مثلهم، واندمجت في عالمهم ناسيًا عذابنا، ولعبت مع الدُّمَى، وركبت المراجيح، ودخلت الأراجوز، وعشت يومًا لم تنسه ذاكرتك.

أعلم أنك لا تسمعنى؛ لأنك انزويت وجلست تحت البلوطة تغني مع اليمامة التي اقتربت من وجهك، ووقفت على كتفك كأنها تؤنس وحدتك، اقتربت من الحمار، وداعبت عضوه، وانتفض، وشعرت مثله ببهجة الحياة.

ورغم معايشتك مثلي هذه الأحداث، لكنك أنكرتني، ورفضت إرشادي إلى باقي الطريق، فتوقفت مصلوبًا أمام شعاع الطاقة، كأن داخل نورها وحشًا سوف يلتهم قلبي.

أرجوك لا تنادِني مرة أخرى باسمي، فأنا أرغب في الانعتاق منك، لا تحزن من نبرة صوتي، فأنت جميل ومحب، لكني أودُّ استكمال حياتي من دونك.

اتركني بهدوء، دون وداع؛ لأني أريد دخول هذه البيوت التي يلفها القبول، علَّني أعثر بداخلها على بشر.

لا تساعدني، سوف أنقل العرجاء بمفردي، فأنا تعودت على عجزها، سأقوم معافًى، ولن تقتلني جرائمهم التي ارتكبوها في روحي.

أرجوك اتركني؛ لأن طاقة السور تزداد، فيجب أن أمر الآن، ولا يهم وجود "شُرُك" و"حزينة" و"ميمون" في حياتي.

يجب أن أرحل، فالشوارع النظيفة تحتاج جامعي قمامة مثلي، كي يحملوا قصاصاتي البالية ويلقوها في خراباتهم كي يفكوا رموزها أو يحرقوها.

أتوسل إليك، اهرب بعيدًا؛ لأني سأشعل النار، وأتمنى نجاتك من محرقتي.

# (24)

لم يعبأ بتوسلاتي وجلس على الرصيف بشعره الحليق، ينتظر نزولي من حجرة "مخروقة" التي عذبني فُجورها، وجعلتني أنسى ذل عائلتي وقهرها.

عندما نزلت السلالم، ورأيت وجهه وجلبابه الأبيض، شعرت بإعاقتي، وسألت نفسي: "من أنا؟ وكيف وصلت إلى هذا الماخور؟".

توقفتُ بالميدان حائرًا بين الطرق الكثيرة التي انسابت تحت أقدامك، كأنها أنهار أنت منبعها.

خفتَ أن ترفع قدميك، كأنك أعمى لا ترى، تيبست عظامك، كأنك أصنج لم يسمع صوت اليمام الذي غرد منتشيًا بظهورك، وطار أمام عينيك ليدلك على طريق القبول الذي ينتظر قدومك.

انسحبت قدماك بهدوء في شقوق الأرض، ونظرت إلى طيفك، وانتظرت إشارته التي تساعدك على الخروج من حيرتك.

الآن عرفت لماذا لم يستجب لرغباتك ويغادر، انتظرك

سنوات حتى تنزل من عند "مخروقة" كي لا يتركك وحيدًا وسط دواماتهم فاقدًا معني الاختيار.

ترك الرصيف، وشد على يدي برقّة، وأدخلني بأول الطريق، كنت سعيدًا لرؤية "شُرُك" و"حزينة" في انتظاري، نعم لم أعرف خلال حياتي غيرهم، فكيف سأتركهم حزانى وأنفد بجلدي؟!

هم طريقي، لكن المرور بينهم والعيش مثلهم يحتاج مني تعلُّم الرقص على الحبال، فهل بعد هذا العمر الطويل يجب فشخ مؤخرتي، وهز أردافي مع عزف وتغريد جوقة "اصطفاف"؟

زجرني لأصمت، وأشار إلى طاقة السور التي امتلأت بالسكون، دفعني لأدخل حواريهم وبيوتهم التي اعتقدت أنهم يعيشون بداخلها مسحوقين، تحسست رحيق بهجتهم، فانتشيت، واقتربت من الجمع الملتف حول "مخروقة" وهي تتغنج، وتبدع في الفرح الذي نصبه القهوجي ابتهاجًا بزواج ابنه الوحيد.

وضعوا أمامهم زجاجات البيرة، وطرب الحشيش، وحضر خفير الخرابة بزوجته الطرشاء وجلسوا حول الطبلية مع أسرة القماش، وملئوا بطونهم، وتشمموا رائحتي، فانتشوا وفقدوا التواصل مع أسرهم، ودخلوا من طاقة السور، وعاشوا للحظات مثل الصامتين.

جلسوا فوق ربوة الجزيرة يستمتعون بهديل اليمام، تذوقوا طعم المودة، ومددوا، وعروا أنفسهم، كأنهم وسط عائلاتهم.

سعدوا للحظات بأحبابي الذين لا يعرفون الكلام، لكنهم فقط يسمعون ويفهمون ويعجزون عن الرد لثقلٍ في لسانهم.

قفزتُ من طاقة السور، واقتربت منهم، ودخلت بعروقهم، وشاهدت نقاطًا سوداء تغلق مسارات الدم في أرواحهم، وتعوقها عن التواصل والمرور إلى باقي خلاياهم.

عطفتَ عليهم؛ لأنهم مثلك تعجز دماؤهم عن التدفق والسريان إلى ذاكرتهم، فيتحولون وينطقون حروفًا مكررة، ويرددونها بأرواحهم، كأنهم يملكون الحقيقة بخرسهم.

سخرت لشعورهم بإزالة الفوارق بين الكائنات، فسمعتهم كمعتوه غير مصدق تداخل ضمائرهم، أثناء إشارتهم ونطقهم بلغات غريبة لم يفهمها غيرك.

ومع ذلك اختلسوا الوقت، وبحثوا في همس وسط الحدائق التي دخلوا فيها عن الخرائط ليحرقوها ويتوهوه هناك، وسط الجزيرة، ولا يعودوا أبدًا إلى هذا العالم.

لكنهم مثلك لم يستكملوا طريقهم، وعادوا مرة أخرى من الطاقة مشتاقين إلى رائحة الحارة، وصخب المقهى، ومشاهدة "مخروقة" وهي تبدع أجمل رقصاتها، فيتمنون زيارتها كي

تقبل معاشرتهم بحب، لينتشوا ويسعدوا لخيانتها رفيقها "العربي" المعروف بقلبه الميت.

عندما لمحته واقفًا، جريت إليه، وقلت له: "أنت قمت بمهمتك وانتظرتني، وتحملتني، ورافقتني، وأعدتني فوق الربوة، الآن يمكنك الرحيل دون خوف على حياتي".

نزلت دموعه كنهر، وتسحب من طاقة السور حتى ذاب في روحي، فتركت جمعهم، وقمت سعيدًا بالأوراق الكثيرة التي تناثرت بأرض الفرح، جمعتها وحضنتها في صدري، وجلست بجوار حماري أسأله عن حاله، مستمتعًا بهديل اليمام الذي ينام فوق البلوطة.

# (25)

رفضت دموعي المرور في مجري عيوني، فضغطتُ على عروقي ليعبر الدم إلى قلبي، لكني فشلت، فسألته: "أين عائلتي التي كنت أنام معها آخر الليل؟". شعرت بوخزه وحضوره المهيب، فاستكملت متسائلًا: "أتريد عودتي لأبحث عنهم، أم أستمر في بحثي عن علاج لدائي؟".

رمقني صامتًا كصخرة ثم ذكَّرني بوعودي في اكتشاف مخلوط القبول الذي سيعيدني إلى حياتهم راضيًا.

باغتُّه بحسرة وقلت: "لكنهم اختفوا، ولن يأتوا مرة ثانية".

فردَّ بود: "لا يهم، فهم سعداء برحيلك، أرجوك انْسَهم، ولا تهتم إلا برحلتك، فطيفك البرىء ينتظرك خلف الأسوار".

تداخلت صورته مع صوته وسمعته يرشدني كي لا أستخدم طقوسي القديمة، أو أبرر ضياعي، احتضنني كأخ فعرفت أنه مثلي وحيد، وتيقنت بأنني يمكن استدعاؤه داخل حصاري في أي وقت، لكن من يدري، فقد ييأس هو الآخر من صمتي ويهجرني؟

ذاب في أعماقي لأوقف هذا الخرف وأواصل يومياتي وأستكمل خطاي ولا أستعيد مآسي "حزينة" و"شُرُك" و"ميمون".

طار حولي وأمرني بوضع يدي بين الشقوق حتى لا أقع، أشار إلى طاقة السور واستكمل ليرشدني: "انظر إلى الكلمات المنهمرة أمام عيونك، إنها حكايتك التي ترددها الكائنات بسعادة".

"اهجر نومك وغيبوتك، ولامِسْ بأطراف قدميك أرض الجنة، ولا تتأسَّ لهروب الظلام، فالنور يملأ ذاكرتك، البعض فعل ما تفعله ونجا، والبعض قاوم وذاب في طفله البريء، وانتقل إلى مرتبة أسمى تمتلئ بالأحبة".

رمق يمامة تراقبنا فنظر لعيوني واستكمل: "لم ينكروك لأنك فهمت لغتهم، فلا تسخر منهم، الجميع عطف عليك، واشترى حلاوة طحينية لفمك، حتى الحمار واليمام وحشرات البيت فهموا صمتك وحاوروك، لا تكن غادرًا، واشكر السماء التي أمطرت أيامًا كثيرة فوق رأسك ألوانًا زاهية وموسيقى مفهومة كالكلام، نعم سيكملون حياتهم، ولن يفقدوا دقيقة واحدة يمكن أن يتذوقوا فيها طعم القبول ورائحته".

"لا تكن قاسيًا، لأنهم أحاطوك بالود سنواتٍ طويلة، حتى في أقسى لحظات تعاستهم كانوا يضعون أكُفَّهم على رأسك ويتلمسون بركتك، انْسَ مآسيهم وواصل صعودك، نعم

لديهم ألسنةٌ وأنت أخرس، ومع ذلك فقدوا التعبير عما يجول بخاطرهم، لكنك تحس آلامهم، فانقل قدميك كي تتمكن من اكتشاف وجيعتهم، اندمج، وفك شفرات قلوبهم بالتسامح، كي يلقنوك سر الصمت، تشمم هواء الحرية؛ لأنك استعدت نفسك، وعدت إلى مكانك، تماسك، ولا تنظر وراءك، لا يهم أنهم أشعلوا النار في أوراقك التي كنت تجمعها كل ليلة، لا يهم؛ لأنك هنا بحديقتي".

نعم الآن بيني وبين عملائي وزوجتي وأولادي وأصدقائي سورٌ عالٍ وجدران، وهناك طاقة صغيرة داخل السور تربطني بعالمهم، ولا يمكن العودة منها أبدًا، أرجوك ابحث معي عن الخريطة كي أساعدهم لينتقلوا معنا إلى أرض التوحد.

شعرت بصعودي إلى قمة الربوة، وتدفق نهر القبول بداخلي وسبحت بين شطآنه راغبًا الوصول إلى نهايته، ورأيت في اللحظة نفسها ظلام الليل يغرق في نور الشمس، وانزاحت الفواصل التي تشق حياتنا كأنها ينابيع محبة.

# (26)

دون إرادتي تسحبت من الخرم المفتوح أسفل السور، وعدت مرة أخرى إلى الحارة، وشاهدت القمَّاش يحمل بقجته على كتفه ويغرد بصوته: "يا أحلى من البفتة يا دمور".

تجاهلني وواصل مسيرته حتى الوسعاية، فكَّ بُرْدته ممتنًّا برزقه، وأحاطته نساء المنطلقة من مداخل البيوت مأسورة بصوته.

قلبن أقمشته أثناء مغازلته لمشاعرهن، قائلًا في حياء: "ده حرير أصلي ما يتلف إلا على وسطك يا غالية".

وضع نوتة صغيرة في جيبه، احتوت على آلاف الأسماء، وأقساط الجمعيات، ومواعيد قبضها والسلف، وما تم سداده من الديون، ومواقيت حصاد القمح في حقول الفلاحين، ومواعيد قبض الأفندية لمرتباتهم.

كان شغوفًا ومعروفًا بولعه في الحساب والجمعيات والمقايضة، لم يكن يعيبه من وجهة نظر جيرانه إلا حركته المتكررة برقبته وخفقان يديه حول جسده.

في غمضة عين رأيته طاعنًا في السن، يركب حمارته البيضاء ويضع بقجته أمامه، ويمر في نفس الحواري كغريب، ويواصل يومياته ونداءه المعروف.

انزعج في أيامه الأخيرة وظل يحكي عن حلم يراوده؛ طريق طويل ليس له آخر، محاط بسور ضخم، ومطلوب منه رص ملايين الملايين من القوالب فوق بعضها بانتظام، ينحني غير مبتئس ويرفع القوالب كي يعلو السور ويرتفع حوله، وفجأة شاهد أهالي الحارة يدخلون بين أسواره ليصطادوا الوطاويط، ويذبحونها ويشربون دماءها.

ينظرون إليه بسخرية، ويوطوطون إبط زوجته وعانتها، ويتفاجأ بها فتاة بكرًا لا يغطيها أي شعر، نظيفة من كل الروث الذي يملأ أجسادنا، حاول معاقرتها، لكنها تأففت من رائحة استسلامه، رغم ذلك لم ينفعل، أو نسمع صوت شكواه.

راقبتُ إيقاعات ونبرات صوته المنخفضة، وشعرت بأنه يفقد التواصل مع جيرانه وعملائه، كان يرتعب من الصوت العالي، ويمشي بحمارته في خط مستقيم، ينكمش على نفسه فوق بقجته، ولا ينام إلا دقائق معدودة، ويرتاب من نقل أي قالب طوب من مكانه.

عاش معهم وسط ثلاجة الحارة التي جمَّدت عواطفهم، ومع ذلك واظب على الصلاة بمسجد الشِّعبة، ولم يفته فجر أو عشاء.

ما دعاني للفرجة عليه أو مواساته هي زوجته "غندر" التي تعشق جمع الحشرات والغبار بأركان حجرته.

بمجرد خروجه مع أولاده للحارة، تتبول على نفسها، وتخرى في أركان حجرتها، وتضع رقع ملابسه وأوراقه على خريتها حتى لا يراها أو يشمها عند عودته.

رغبت في إزهاق روحه؛ كي يفيق من ذهوله ويوقف سيره أثناء نومه، تمنت نسيانه الدوران في الخطوط المبهمة التي لا يستطيع أحد إيقافه أو إيقاظه منها، وإلا تلقى لعناته وأسى عيونه.

كان يعود آخر الليل من سرحته يربط حمارته، وينادي على أولاده من الحارة، ليكنس حجرتها ويطهرها، يترِّب للحمارة، ويغلي الماء مع البطاطس، ويجلس وحيدًا معهم يتناول وجبته الوحيدة.

عندما أوقفته وسط الحارة وهو يهم بندائه المعروف، نظر إلى عيني المخبوءة في رأسي، فعرفني، ونطق مثلي، وردد حرفًا واحدًا: "حاء.. حاء" فبادلته النداء: "آء.. آء".

خاطبني على غير عادته قائلًا: "عايز إيه يا ميمون؟"، فسألته: "أنت مسافر؟".

رد بحزن أعرفه: "لسه شويه".

واستكمل صامتًا: "يجب ألا نحلم بتحقيق أحلامنا بتطهير الحجرات وهدم الأسوار؛ لأن جيراننا عميان، وعقولهم مصمتة، يكفينا أننا نفهم لغة البط والحمير واليمام، وهم عاجزون عن الخروج من مساراتهم".

تربصت أمامه لإجباره على تغيير طريقه، ولأنه عاش وحيدًا خلف أسوارهم، أطاعني ونزل من فوق حمارته، وصعد إلى طاقة السور في سلاسة، وانتقل إلى عالمنا غير آسف على وداعهم.

سار ورائي في خط مستقيم حتى نهاية الحارة، وعدنا مرة أخرى وسط هوس زوجته من ذهول القمَّاش الذي نسي الحسابات، والجمعيات والقبض، وأول الشهر وآخره، ومواسم الحصاد، وحرق نوتته بعد تقطيع أوراقها إلى قصاصات صغيرة تعجز عيونهم عن رؤيتها.

انبهر مثلي بظلالهم التي تتحرك على الأرض بجوار أجسادهم المتيبسة، نسي وجودهم، وتواصل مع خيالاته التي تملأ الدنيا سعادة.

## (27)

خرجت "حزينة" من حجرتها لإيقاف سخرية جيرانها من ذهول القماش، تسمرتُ بمكاني ونظرت إلى عيون "شُرُك" من بعيد فتجاهلني، فأصررت بعناد على مبيتي وسط الحارة.

تركتني وسط أولاد "عربات" وزوجته الذين زجروني محاولين إعادة رجلهم إلى حجرتهم الممتلئة بروائح الزرنيخ.

زمجر بلغة الكائنات، فسخروا من جنونه، بادلهم الضجر بتكرار دوران رقبته، وصرخ فيهم: "ماء.. ماء"، فهرولوا بعيدًا وتركوه.

سرنا.. وعدنا في مسار واحد آلاف المرات، ولم نهمس بصوت؛ لأن اليمام كان يغرد ابتهاجًا بوصول القماش إلى ربوة الجزيرة.

خرج "بوشة" وزوجته، وصرخَا فينا كي نتوقف، وادَّعَيَا أننا سرقنا النوم من عيونهما، وحينما فشلا في إيقافنا، فتحا مخزنهما المخفي بباطن الأرض، وجلسا ينظفان جلودهما، ويملحانها، كأمل أخير في تجاهل صمت خطواتنا.

وضعَا جلودهما في براميل مملوءة بحامض كريه، ورفعاها على حبال متينة، وشداها بصنعة كي تتفكك وتتحول إلى رقع صالحة لصنع أحذية البشر.

ارتاحا للحظة وقاما ليعاودا عملهما، أنزلا في تأنٍّ قوالب الشباشب على الأرض، وأشعلا النار تحت أواني الصلب، وصبا البلاستيك منها في القوالب كي يتحول السائل المنزلق من القدور إلى خرق تحمي أقدامهم من الروث الذي يملأ بيوتهم.

حينما انتهيا من اللف في الطاحونة، لفت زوجته العاقر سيجارة وشدت نفسين، ووضعت باقيها في فمه ليستكملها.

لفت رأسهما، وتداخلت مشاعرهما، وتشابكت عروقهما، فقاما كانتحاريين يحاولان القفز من السور للدخول إلى عالمنا، تسحبا كالسحالي وسط صمت الكائنات التي تسمرت مندهشة من صبرهم على هذه الحياة.

حين عجزا عن تحقيق مرادهما، لاختفاء طاقة السور المنيرة عن بصيرتهما، ابتعدت زوجته عن جسده المهلهل، وخلعت ملابسها، وارتدت قميصها المفشوخ أعلى فتحتها، تحسست قضيبه المرخي، فقفش نهديها وعقرهما ولعق فرجها، ومع ذلك رفض عضوه أن ينتصب كعادة أهل الحارة.

حاولت إعادته إلى مجده، فأشعلت البوتاجاز، ووضعت الطبق المملوء بكبدها المحروق وفلفلها الأسود، وضعتهما في

رغيف بايت، وناولته ليديه ليلتهمه في نشوة.

ذكَّرته بلياليه في أحضان عشيقته، وزوجته الأولى التي آواها من الخرابة، وصفت مشاهد لا يمكن لعاقل أن يتخيلها، ورغم ذلك رفضت مشاعره الاستجابة لغرائزها، حاول وحاول لكن جسمه امتلأ بعناصر أخرى لا يمكنه تداركها، لافت عروقه على بعضها داخل قلبه، وأضحى صامتًا مثل بشر الجزيرة.

حين رمقني أنا و"عربات" نترقب وصوله، خرج من حجرته وسألني: "انت معايا ولا معاهم؟". لم أردّ، وأشرت برقبتي إشارات فهم مغزاها، فاستجاب لهديل اليمام، وقفز مرة واحدة من الطاقة وعبر من السور، سار وراءنا عاريًا محني الظهر رافضًا توسلات زوجته التي صرخت عارية وسط الحارة كي يعود.

التمَّ الجيران، وحاولوا ثنيه عن السير وراءنا، فعاد من طاقة السور كالمجنون وأدخل أصابعه في فمه، وعضهم بقوة، وأخرج أصواتًا غريبة، وتحدث بلغة الوطاويط التي يرتعبون عند سماعها، وتكلم بنبرة المسحوقين، وعاد لصرعه.

تدلدلت الريالة من فمه وأنفه، وهو يفقد ذاكرتهم، ويصارع شرايينه التي اختلت أنظمتها التي دربها سنواتٍ طويلة على نموذج واحد لا يتغير.. نموذج لا يعرف إلا المتعة بمعاشرة النساء وامتلاء جيوبه لغشه في نوع الجلود وألوانها، رغم أنه يعلم أنه دون أبناء يرثون أكاذيبهم وأوهامه.

ظل الجزمجي يحلم سنين بمغادرة حياتهم، كان يطير أثناء نومه محاولًا المرور من الطاقة والعيش مثلنا دون صوت، لكنه فشل في التواصل مع بشر الجزيرة بسبب نشوة زوجته ووطوطة عانتها وإبطيها كل ليلة، وعندما آمن بطريقتنا ورؤية عالمنا المخفي، قفز مرة أخرى، وتغيرت نبرة صوته، وصرخ كالحمار الذي بادله الصوت من داخل زريبة "شُرُك"، وغردت اليمامات واهتزت البلوطة، وعاد بكامل هيئته إلينا.

الآن لم يعد للغاتهم أو حروفهم أي معنى، أصبحنا نشفق عليهم، وهم يستغربون صمتنا واختلال ذاكرتنا.

رغم أن الليلة لم تنتهِ، لكن أهل الحارة والحواري المجاورة وسكان الشُعبة جاءوا ليتفرجوا على القماش والجزمجي وهما يسيران خلفي كأنهما يرمحان فوق قطارات لا تعرف التوقف.

وحين غرد اليمام، صحونا من غفوتنا وسرحنا نجمع الأوراق المدهوسة في الحارة، وعدنا إلى زريبة "شُرُك" وجلسنا تحت البلوطة لنقطعها قطعًا صغيرة لا يمكن أن تراها عيونهم.

# (28)

عدت إلى شقتي مذهولًا مما حدث، وشعرت بنبض عروقي وسريانه في دمي دون إعاقة نقطتي السوداء.

تجاوزت محنتي، ولم أصدق أن "ميمون" أصبح له أصدقاء، كنت سعيدًا لتمكنه من إيثار القماش والجزمجي ليتبعاه، ويرحلوا من عالم الأصوات.

دخلت الحمام، وأخذت دشًا، وفتحت الثلاجة، وأخرجت فرخة مجمدة، ووضعتها في الحلة تحت النار، راغبًا في الاحتفال بقبولهم، وحينما سمعت جرس الباب أغلقت البوتاجاز، وجريت لأفتحه بهمة.

دخلتْ امرأة مهتاجة بكامل هيئتها، وعندما سمعت صوتها شعرت بأنني عدت مرة واحدة داخل الظلام.

في تلك اللحظة شاهدت "يسرية"، زوجة القهوجي، تدخل المطبخ وتلتهم الفرخة بدمائها، دفعتني على الأرض دون سبب، وهرولت بين الحجرات، وخرجت بشعرها المنكوش وحلقانها اللامعة إلى الحارة تبغي فضيحتي.

هرعتْ إلى منزل القهوجي وشقت ملابسها، وشخللت غوايشها، واستدعت نساء الحارة اللائي جلسن حول منقد النار في الظلام، يدققن الطبول، لإخراج الجن من أجسادهن.

دُرْنَ برقابهن في الفضاء، وضربنَ رءوسهن في الحوائط، وخلعن ملابسهن، ووضعن أصابعهن في فروج بعضهن ومؤخراتهن وصرخن: "آه، آه"، ونفخ الرجل الوحيد بينهن بمزماره ليعلن بداية الليلة، وشاركه القرداتي بعد غيابهن وضياعهن في ذبح الوطاويط، ووطوطة عاناتهن وتحت إبطهن.

وحينما انتهي من تلطيخ وجوههن بالدماء شاهدت أفخاذهن العارية تلوك في الأرض راغبة في الدفن، حينها عادت "يسرية" إلى جواري وجلست على الكنبة، لم تشعر بمأساتي، وقالت باكية: "معاد الجلسة دلوقت، الدكتور هيخلص بسرعة، وهنمشي على طول، متخافش".

كتَّفوني في سريري، ووضعوا الأسلاك على خصيتي كي يعيدوني من الجزيرة، لكن القهوجي هو الذي عاد ليجد منزله تحول إلى كودية زار.

استدعى "خرية" و"اصطفاف" اللذين أطلقا سوطيهما في الهواء، ونزلا على جلود النساء الرقيقة بجبروت وخسة لم أتخيلهما في أحلامي، ففقدن الوعي، وانتقلن هاربات إلى المجهول الذي ينتظرهن خلف جدران منازلهن.

جرين وسط الحارة كمغدورات إلى جحورهن، وتركن القهوجي بصحبة "يسرية" يبغي غفرانها، أخلعها ملابسها التي ملأتها بالرقع والأزرار مختلفة الألوان والأحجام، وتحسس جسدها اللامع الخالي من الشعر، وفك الأساور البلاستيكية من أقدامها ويديها.

تلوت أمامه على الأرض كحية، راقبت عيونه وجلست مصلوبة، قضمت يديه، فانتقل السم إلى جسده، وتلوَّى كالثعبان على الأرض متلظيًا في نارها، وظل يعوي حتى مات.

من لحظتها، كلما لامست أسلاكهم جلدي تكهربت عروقي، فأطير محلقًا عاليًا بين المجرات، أسير بينها في خط مستقيم باحثًا عن أي أوراق كي أجمعها وأصنفها وأقطعها، لكن الفضاء يمتلئ فقط بأثير السكون.

انطلقتُ باحثًا عن طيف "مخروقة"، لكن الدنيا مملوءة حولي ببكارة الندى المتصاعد من بخار الأشجار الصامتة وأنفاسها، دعمتني الكائنات، ورفعتني أكثر وأكثر كي أعلو وأطير وأسمو، وأنظر إلى جدران البيوت، فأجدها تتهاوى من ورائي.

أبحث عن "شُرُك" و"ميمون" و"حزينة"، فلا أجدهم.

رغم أني كنت في عالم آخر، لكني شاهدت خفير الخرابة يصرخ كالمجذوب هاربًا من زوجته الطرشاء.

ترك وظيفته المعتبرة ومرتبته المملوءة بالفضية، وعلق على بابه المكسور ورقة بالية تمكّنها من الزواج بأصنج مثلها.

وحين سألته: "لماذا كل هذا الكرم يا خفير الغبرة؟"، نزل على جسدها بكلتا يديه، وعضها من حلمات نهديها، وكاد يقطع أذنها الباقية بأظافره.

نسي ماضيه بين أكياس البلاستيك المملوءة بقذاراتهم، وسأل أحد العابرين عن "موجة" أجمل بنات الشُّعبة التي يعرف الجميع أنها تعاشر والدها بعد صلاة الفجر.

كان يحدِّثهم بلغة غريبة وهو يصف همس عيونها ويبكي، ويرفع الكراتين فوق رأسه، ويناجي النمل الميت، كي يعيدوا "موجة" إلى أرض الشُّعبة.

نعم عاشرت والدها لتجرب المتعة، لم تحترم لحيته الطويلة، وجلست كل ليلة تلعق عضوه كي ينتشي، وتراقب بلذة لحظة قذفه أعلى فتحتها.

لم يتعظ الرجل بكلمات ربه، واستدعى فتيان الشُّعبة كي يعاقروا ابنته، وهي تنزف وتصرخ من رائحة بقع الدم الذي لون ملابسها الداخلية بنقاط سوداء ظلت بذاكرتها سنوات طويلة.

وحين علم الخفير بخبر زواجها من ابن "وسيم"، رئيس

الشُّعبة، هجر الطرشاء وأهمل الخرابة وولاد الليل الذين وثقوا به وأخفوا مسروقاتهم وسط كراتينه.

جلس بمخزن "العربي" يعاشر "مخروقة" كي يخرج من أزمته، لكنه كان يعيش في خوف دائم لا يعرف مصدره، وأدى إلى امتلاكه تاريخًا من العدوانية، وردد وحيدًا كلما رأى ظلال المارة: "أيقتلني العربي لمعاشرتي مخروقة؟ أيقطع خصيتي أولاد الليل لأنني وشيت بهم لخرية؟ أيهجم عليَّ أزواج النساء الدواعر اللائي يملئن الحارة؟".

استكمل حكاياتها مع المارة محاولًا الهروب من عالمهم، حدَّث ظلالهم التي تجري أمامه كأنهم إخوته.

نعم منذ رأيتها من الشباك تعاشر والدها العجوز، وهبتُ نفسي لها، لكنها أبدًا لم تلِنْ، وقالت بسخرية: "كيف أتزوج من زبال يضاجع ثعابين الخرابة كل ليلة؟!".

عاشرتُ نساء الحارة اللائي غافلن أزواجهن، كي أنسى وجهها وهو يتفتح أثناء صراخها تحت جسد العجوز سعيدة بانقباض عضوه بداخلها.

لكن في الليلة الفائتة، وحينما كنت أراقبها كعادتي من شباك منزلها الجديد الذي انتقلت إليه مجبَرة على معاشرة شخص آخر خلاف بعلها، شاهدتها عارية داخل مطبخها، وضعت فوق رأسها جركن الجاز، وأشعلت عود الكبريت، وألقته على

شعرها المتهدل بثقة أرعبتني.

تسمرت أقدامي عند ارتفاع نارها إلى السقف، ولم أعد لوعيي إلا بعد سماع صراخها المتألم: "آه.. آه".

فبالله عليكم، كيف أعود إلى الطرشاء والخرابة بعد فقد طاقة خيالي وأملي؟! لا.. لن أنتقل من هنا قبل عودة "موجة" إلى الحياة.

نزلت على عجل بجواره، وحاولت مواساته، طبطبت على رأسه، لكنه لم يرني أو يشعر بوجودي، ضغطت على النقطة المظلمة برأسه، فانفجرت وملأت الخرابة ببحور الأسى والقهرة.

حينها تمكن الدم من المرور في باقي شعيراته، وفتح المسارات المغلقة والمتشابكة داخل عقله، فصرخ كالجبال، وكرر صرخته المدوية التي رددها صدى صوته معيدًا آهاته وتعديده وبكاءه إلى قلوب حشرات الخرابة ليرعبهم.

فتح فمه وأغلقه، كأنه سيفارقنا، دار حول نفسه ورفع يديه وأنزلهما مئات المرات، ونظر إلى طاقة السور باستغراب، اقترب من شعاعها كالمسحور، وتشعب في الشقوق وقفز، وجرى في خط مستقيم حتى وصل إلى وسعاية الحارة.

عندما شاهد القماش والجزمجي، وشعر بوجودي، خاطبنا

بلغة الثعابين، فزمجر القماش، وبصق على الأرض، ففهم رسالته، فتنهد، وتنفس بعمق، كأنه يُغرق بحور أعماقه في الأثير، بكى وضحك في آن واحد، وصمت لثوانٍ أو لسنين، ثم هدهد مع يمامنا نغم الكائنات.

اهتزت البلوطة، ورفرفت أوراقها لتوحد الخفير، نعم من اليوم يمكننا تجاهل أصواتهم الميتة، ويكفينا التواصل بلغتنا التي يحتارون في فهمها.

# (29)

صحوت من نومي، تيقظت وعدت للغفلة في نفس اللحظة، داعبتْ جفوني جدرانًا مظلمة ولمباتٍ مضيئة، وسمعت أصواتًا كثيرة لم أفهمها، لكني اعتقدت بأنهم إخوتي وأبنائي وأصدقائي، جاءوا لزيارتي والاطمئنان على صحتي.

تلسعني بمؤخرتي أيادٍ ثقيلة كأنها تدقُّ جبال التوهة في شعيراتي، فأدخل في الغيبوبة من جديد، وأجد نفسي ملقًى على ظهري وحيدًا على باب زريبة مهجورة، وأنظر بذهول إلى أوراق بلوطة حزينة.

وأثناء انشغالي بقياس المسافات بين أعرافها المتناسقة، دخل "شُرُك" و"حزينة" خائفين من أنيني، مسحا ملابسي من الخراء، وأدخلاني الحمام وحمماني.

تشابكت شعيرات دمي وتفككت حواسي، واهتز جسدي مصروعًا، تمرمغت على الأرض وجززت بأسناني على لساني، فوضعا بفمي منديلًا قذفته لهما "غندر"، زوجة القماش، من بابها المفتوح.

عدت إلى وعيي، وقمت مفزوعًا وجريت وسط الحارة أبحث عن "عربات" و"بوشة"، والخفير... أين رحلوا؟

سمعت بتريث مواء القطط يحذرني من عهر "اصطفاف" التي وشت إلى "خرية" بجريمتي، فجاءوا أثناء غيبوبتي ببلطجية "العربي"، وسحبوا أحبابي من الوسعاية، وألقوهم بغياهب السجن بادعاء مشاركتي النصب على عملائي.

شعرت بأجسادهم تتلظى داخل نار "خرية" التي أشعلها بساحة الشُّعبة ليعترفوا على ضلوعهم في جريمتي.

كانوا يبكون.. ليس من الألم، ولكن لأني دخلت إلى غيبوبتي، وتركتهم يعودون من طاقة السور إلى وسعاية الحارة دون تنبيههم إلى عواقب تأرجحهم بين أرض الجزيرة وعالم الأموات والخرابة.

نظرت في عيون "شُرُك" الذي فهم إشارتي، وحملني غير عابئ بتهديدات جيرانه، وضعني بجواره فوق عربته، وسار إلى خارج الحارة متجهًا للأسوار غير عابئ بولولات النسوة من حوله.

دخل باحة السجن الذي ينام "خرية" أمام بوابته مسطولًا في حضن عشيقته، دق على أسوارهم المصمتة، وفتح كبير حراسه متوعدًا الطارق بالموت، لكن "شُرُك" لم يتراجع، وطالبه بزيارة أحبابي المحابيس.

تعجب من جراءته، وفتح قضبانه الحديدية وقال: "سيبوا العربية والحمار ومتتأخروش".

سار "شُرُك" مزهوًّا بنفسه وسط جدرانهم، دخل زنزانتهم وفك وثاقهم، وأعطاهم من الصديري لفافة الحلاوة، وفتح بقجته وقال: "والله لتاكلوا، ده أكل حزينة يا موحدين".

قطعوا لقيمات الخبز ودهسوها في البطاطس المهروسة، ووضعوها في أفواههم، فشعروا بوجودنا، وسمعوا غناء اليمام، كأنهم يعيشون بوسعاية الحارة.

حين لمحتنا "اصطفاف" تعجبت من صمتنا، فوشت إلى "خرية" الذي استدعى "العربي" وبلطجيته، ونزلوا على أخي "شُرُك"، يقطعون جسده، لمشاركتي النصب على عملائي الذين وثقوا بأمانتي وأعطوني كل ما يملكون، لأعمل جمعيات، وأشتري جلودًا، وأصنعها شباشب، وأقاسمهم المكاسب، ونثري ونشتري قصورًا وأراضي ترمح فيها الخيل، لكنَّ الموحدين صمتوا لجهلهم بأحلامي، ولم يعترف أخي بجريمتي، فاستحقوا جميعًا السجن خلف أسوارهم.

صرخت "حزينة" في الحراس خارج البوابات كي ترى ولديها وتطمئن على صحتهما، سحبوها حتى لا تقع في حفر الشوك، وفضلت النوم بجوارنا على العودة إلى حجرتها، ولم تَهَبْ تهديداتهم بالحبس إذا لم تعُد إلى مضجعها.

حينما نظرتُ في عيونها شعرت بروحي، احتضنتها مع "شُرُك"، وأشرت إليهما ليطيرا عبر طاقة السور، وينعما مع "بوشة" و"عربات" والخفير بالعيش في براح الصامتين.

لم يترددا، وعبرا الطاقة كالفرسان، وعشنا يومًا لم نتخيله بأحلامنا، رقصنا مع العصافير، وشربنا من بحر المودة، وارتدينا ملابس مضيئة، واختفت أعضاؤنا وحواسنا الزائدة عن طبيعتنا، وعدنا أبرياء كقلوب أمهاتنا الصافية.

جرينا كالزرازير وسط الزهور الملونة، ونمنا على الحشائش الندية، ونظرنا إلى جدران السجن الذي حبسونا بداخله، فانهارت قضبانه المتهاوية، فاستكملنا سيرنا داخل بيوت الحديقة الخشبية المبنية وسط الفضاء لننعم بالعيش مع أحبابنا الذين يملأون براح الكون.

# (30)

لم يتركوني بحالي وعادوا ليدهسوا جلدي، دقوا حقنًا كثيرة في شراييني، ولسعوني بأسلاك الكهرباء كي أفيق متمنين عودتي بكامل عقلي، لأمارس مهمتي كظل حائط.

حولت أظافرهم طاقتي إلى رتقة متهالكة، وتركوني وحدي، وخرجوا بعد اطمئنانهم على استمرار وجودي في الحياة.

تعكزت على الحائط لأدخل الحمام، ورفعت قدمي بصعوبة لأضعها في الحذاء، لكن أين سأذهب؟

أفهم أنك لا تعرف غيرهم في هذا العالم، لكن لا يمكن أن تظل هنا أكثر من ذلك؛ لأنك شاهدتهم ليلة الأمس يتفرسون جسدك ويتساءلون: "من هذا؟".

لم يعرفوك، ورغبوا في إلقائك بالمنور الضيق، لكنهم خافوا من ارتطام عظامك بأسياخ الحديد المتشابكة، وإعلان الفضيحة وسط الجيران.

حاولتَ استعادة ملامح وجوههم، ونبرة أصواتهم، وحقيقة

شعورهم، لكنك فشلت، فمن كان ليلة الأمس برفقتك؟

كنت في حلم داخل حلم حينما سألني جاري الذي يسافر معي في الباص إلى مدينة البحر: "هل أنت مطلوب؟."

لم أردَّ عليه أو أهتم بفضوله، لكن النجوم اللامعة على أكتاف الضباط الذين يترأسون اللجنة أرعبتني.

قلت لنفسي باندهاش: "يا الله، أيطاردونني حتى في أحلامي؟!".

حينها تحسس جاري دموعي وقال: "لا تخف".

نزل من الباص وأشار إلى جسدي، وسمعته يقول لكبير الضباط: "عاجز، وليس له أهل، ولا يملك بطاقة تموين".

نظروا ناحيتي وتفحصوني، وشاهدوا ريالتي على ملابسي، فصرخ كبيرهم في السائق كي يمر قبل تفخيخ الباص بعبوة ناسفة.

حينما نزلنا في المدينة، جريت إلى البحر، وشاهدتها هناك.. نعم وقفت "مخروقة" في انتظاري تتدلل على المارة، كأنني فارسها المنتظر.

تشممتُ رائحة المحشي فقلت لها: "سأذهب لأشتري الكرنب والخلطة"، دخلت السوق الذي تلمع أرضيته من النظافة،

ويرتدي بائعوه ومشتروه ملابس زاهية، أحاطته أشجار بلوط عالية ومتناسقة، وملأت فضاءه روائحُ الفل المتناثر على أرصفته.

من بعيد لمحتهم من طاقة السور الفاصل بيني وبينهم، وسمعت أصواتهم تغني مع اليمام، بينما تقف "اصطفاف" مندهشة من صمتهم.

تسللتُ بخفة بين شعاع الطاقة، ودخلت عليهم بفاكهتي، تشمموا عرقي وعرفوني، وقال "ميمون": "أنت الساكن الذي أرهقنا بأسئلته وأوراقه الغامقة".

طبطبت "حزينة" على ظهري وقالت: "يا خرابي يا ضنايا، أنت بقيت شوية عضم من غير لحم".

فتح "شُرُك" أكياس فاكهتي، وأعطى لـ"عربات" والخفير و"بوشة" عدة ثمرات، ونظر إليَّ بغرابة قائلًا: "كيف تركت النعيم وعدت إلينا مرة أخرى؟!".

كان يتهكم أو يسخر، لا أدري، لكنني شعرت بأنه رغب في إنارة بصيرتي لأرى حقيقة اختياري.

جلست صامتًا، فتيقنوا من إصراري، شبكوا أياديهم في يدي وجلسنا في دائرة نغني مع الكائنات التي أحاطتنا بودها، وحينما وصلنا إلى نهاية اللحن، حملتنا الطيور، ومرت من

الطاقة وطارت إلى الجزيرة لنستمتع بحياتنا مع الصامتين الذين يملأون الدنيا بالقبول.

نظرت من بعيد إلى جدران السجن، فتهاوت جدرانه، ولم أشعر بصوت ارتطامها بالأرض، فاستكملت سيري بين الأشجار سعيدًا بنسمة المودة التي روت شقوقنا.

# (31)

أثناء غفلة أحبابي جاءني كطيف مجهول، وخطفني، وعاد من خُرْمٍ مخفي لا أتذكر مكانه لكنني أعتقد أنه مخبوء أسفل الحائط في قبو الصراصير.

رفع صور زوجتي وأبنائي وأصدقائي وعملائي وقال: "هل يستحقون؟"، دخل روحي وطار وسط خلاء موحش، وأنزلني أمام خرابتهم التي لفوا حولها الأسوار والأسلاك والشوك وتركني أتحدث مع المارة.

ناشدتهم النظر في عيني، لكنهم تركوني أهذي بمكنون أعماقي، فطار وسط الأثير مختفيًا تاركًا طيفي يتحدث مع ظلالهم.

أرجوكم اقتربوا مني ولا تخافوا، أنا كائن مسالم، سوف تشاهدونه على الأرصفة يحكي وحيدًا لنفسه، ويرغب في سماع أصواتكم.

أشفق على وجوهكم القاتمة، وأتساءل: من أحرقها، وجعلكم

لا تحسون بالسعادة التي يلقيها الندى كل صباح؟!

أتشبث بظل أحدهم وأواصل حواري ليتوقف ويسمع صوت اليمام الذي يغرد حول أحبابي النائمين الآن داخل أسوار "خرية".

أشاهدهم يهرعون من طاقة السور باتجاهي، ويحملونني ويطيرون بروحي فوق أشجار السماء، نجلس على مقهى الزهور، ويتراقصون حولي، ونشرب من نهر القبول حتى ترتوي أعماقنا، فنطير ونحلق ونتحول في نفس اللحظة إلى سرب طيور يغرد بتناغم لحن المحبة.

شاطرتنا العزفَ كائناتٌ لم تطأ عوالمكم.. كائنات صامتة بألسنتها، لكنها تتراقص على موسيقى لن تفهموها، أو تحسوا بنغماتها، موسيقى حروفها صامتة، لكنها تقول الكثير من الجمل التي أحفظها، ويعجز لساني عن نطقها.

جمل تعني احترام وجودنا واختياراتنا.. جمل تُنطق بلغات متعددة، وتتهادى على حفيف رياح السعادة، أسمع رناتها، وأنتشي: "حب، سلام، قبول".

تلمسوا مقطوعاتها التي يشدو بها صوت الطبيعة، ونشعر معها بأننا جزء من معزوفة منيرة، كلماتها موصولة وفواصلها حدائق مبهجة، لا يوجد بينها غلٌّ أو هزيمة أو علامات استفهام، لغة فضائية لا تعرف بداية أو علامات تعجب، لكنها مشغولة

فقط بالسكون.

رغم صراخي وسط ظلال المارة وبين فراغات أقدامهم، لكنهم لم يسمعوني، وظلوا يركضون ويركضون كي يلحقوا بمواعيد عملهم وغرامياتهم، تجاهلوني كميت وأنا أواصل حديثي عن عزف أحبابي ومديحهم.

أرجوكم توقفوا وحاولوا لمرة واحدة أن تعبروا من طاقة السور، لتتشمموا رائحة الصمت وتفقدوا مذاق الخرابة التي تتشبع بها أجسادكم بعد دعكها بالصابون في حماماتكم المغلقة على روائحكم.

أرجوكم لا تدقوا على بابي، فأنا كائن ليس له مكان، كل ما أعرفه أنني جئت إلى هنا، لأتوحد مع طبيعتي في حياة دائمة لا تدركها أرواحكم.

اتركوني خلال الفترة الباقية معكم دون نزف أو دموع؛ لأن قلبي الوحيد يتمزق حين أشعر بحزنكم، أرى ضي وجوهكم الممتعض فأشعر بالسحق؛ لأنني عاجز عن إعطائكم الدواء، أحتويكم في جنتي، وأعجز عن مشاطرتكم الأوهام؛ لأن لغتي لا تعني جملًا مصمتة، وأنتم فقدتم منذ انقطاع وجودكم فهم إشارتي.

نعم أغرق في السعادة، لكني حزين لعماكم، ومع ذلك عاهدت أحبابي على مساعدتكم، واكتشاف سر جروحكم، وليس عليَّ

في أيامي القادمة إلا معرفة شفرة الطاقة كي أنتقل بسلاسة بين عالمي وعالمكم وأغير مفاهيمكم كي تصعدوا الجدران بخفة وتعبروا معي إلى أرض التوحد.

ليس عليكم إلا القبول، وقتها ستنفجر الطاقة في أسواركم، وستعلمون مثلي بأن طريقكم الذي سلكتموه لم يُفْضِ لسعادتكم، وأن حياتكم كانت وهمًا، أنتم من قمتم خلال عمركم الضائع بصناعته.

حين حاول بعضهم التقرب من ظلي ورفعي فوق الرصيف كي لا تدهسني باصاتهم المتهالكة، توسلت له أن يتركني لأجمع قصاصات أوراقي وأفرزها، علَّني أعثر على الخريطة التي تدلهم على مكاني.

# (32)

انتهوا من دعكي بمساحيقهم وتيقنوا من عودة الحياة إلى لساني، وحين شعرت بهروبهم خرجت متعكزًا على عصاي، سرتُ ساعاتٍ طويلة وسط حوارٍ وأكوام قمامة دون اهتمام بمصيري.

ترجلت بجوار نهري الحزين أراقب قطرات مياهه المتصلة، وأثناء تأملي لطيوره العابرة، دهستني سيارة نقل تجر مقطورة مهولة، هرست عجلاتها عظامي، وتفرقت دمائي، وصرخت أعضائي: "آه، آه".

شاهدت فتاة شبيهة بـ"موجة" تنزل من سيارتها السوداء، وتنظر في وجهي وتقول: "خسارة".

الألم يمزق جلدي المهلَك، فمن يرفع جثتي ويضع يده على فتحات الدم المنبثقة في عروقي؟

لم يسمعني أو يرني أحد، كان الليل الطويل وبشاير الفجر يدفعان البشر إلى الهروب، نظرت فوقي وشاهدت أوراق شجر البلوط المحيط بالنهر تهتز فرحًا، اقتربت اليمامات من

جسدي ووقفت على كتفي وغردت.

تمنيت حضور "شُرُك" أو "ميمون" أو الخفير أو القماش أو "بوشة" أو حتى "حزينة" الكفيفة من خلف أسواركم وإغاثتي.

لكنهم كانوا بسجونكم يتندرون على قسوة "خرية" وعهر "اصطفاف"، تنصتُّ من طاقة السور فسمعت أصواتهم الصامتة تغرد مع يمامتي في معزوفة تفهمها جروحي.

تركوني ملازمًا وحدتي أنزف كخرقة، ولم يشعروا بشراييني المفرومة، فعلها المجرم "خرية" وعشيقته، أغواني كي أغادر الجزيرة وآتي إلى هنا لأعاين الحادثة التي تجرعت بسببها الآلام.

اتصل بعض المارة بالمستشفى، فحضرت سيارتهم، ورفعني المسعفون وسط فرجة عملائي وجيراني الذين لملموا قصاصاتي وألقوها على سريري، وأغلقوا الباب بقرف، تكورت داخل نفسي ونظرت من شباكها إلى الفضاء، كان يطير بجواري ويتأسى لحالي، أعرفه ويعرفني، لكن العظام المدشوشة بعمودي الفقري وقفصي الصدري تتمزق وتحاول الالتئام من جديد.

دقوا حقنهم في جسد عليل يفقد معنى إصرارهم على استمرار وجوده في الحياة.

رأيت الأطباء والممرضين يهمهمون بعيونهم ويتصعَّبون لحالي، تجاهلتهم وحاولت التواصل مع عائلة "شُرُك" وحارته، بحثت بدأب في أعماقي عن الطاقة التي هربت منها كي أتونس بوجودهم.

دعبست في أركاني علَّني أعثر على شعاع النور الذي كنت أتسحَّب بين خصلاته لأعود إليهم، عاودت الضغط على الدم ليصل إلى أعماق ذاكرتي ويرشدني إلى شق نجاتي، لكن مشاعري تفحمت، وتوقف دمي عن التدفق.

نظرت إلى ذاكرتي، وحاولت استنطاقها، لكنها لم تحس بوجودي، وعاقت نقطتي السوداء مرور كرات الدم المتسربة من عقلي إلى لساني.

تزايدت النقطة وكبرت، وملأت عروقي بالظلام الدامس، وشعرت كأنني رتقة عفنة، تصرخ من فوق سريرها وتتساءل: "من هؤلاء؟ وهل كانت أحلامي بطاقة السور وهمًا وخيالًا؟!".

# (33)

حينما دخل أولادي مرقدي جن جنونهم، ونادوا بصوت عالٍ: "بابا، بابا".

رافقتهم امرأة منكوشة الشعر تضع سيجارة طويلة بين أصابعها، وتصرخ في الجمع المحيط بهالتها: "ارحموه".

أعادوني إلى شقتهم المحاصرة بالشوك في منتجعهم الفسيح، لكنني عجزت عن التفريق بين زوجتي و"يسرية" زوجة القهوجي، حتى أبنائي أتصورهم أحيانًا كثيرة مثل طفل "حزينة" العاجز، وأنادي أكبرهم بعض الأحيان باسم "ميمون".

حين يئسوا من جروحي أعادوني إلى المستشفى، وحجزوني عدة ليالٍ بين أسوارها، وقام الأطباء بعجني تحت أجهزة الصوت والضوء، وعشت أوقاتًا طويلة تحت ضغط البنج والكهرباء، وتمكنوا من إجراء الفحوصات والجراحات، وأزالوا الفواصل التي تربط بين أعضائي، وعدت يقظًا واعيًا مثل باقي البشر.

أخفوا عن عقلي الطاقة التي كنت أمر منها وأرى حقيقتهم،

دفنوها ببراعة بمساعدة أطباء لصق العظام وترقيعه، حطموا ذاكرتي، ووضعوا بدلًا منها فتائل من قش الرز، ليسهلوا حرقها وقتما يشاءون.

أعادوني إلى شقتهم مرة أخرى كي يستكملوا برنامج علاجي، أدخلوني سريري، وزارني إخوة وأصدقاء، ونام أبناؤهم إلى جواري.

لا تندهشوا من ذلك، فأنا لي أسرة مثلكم، وأخرج إلى عملي كل صباح، وأحشر سيارتي الفارهة وسط الباصات والزوايا لأصل قبل موعدي إلى مكتبي.

لي عملاء يحقدون على صمتي، ويرغبون في التلصص على أنفاسي ليعرفوا سر تيقظي أو ذهولي كي يغالطوني في سعر الجلود التي نتاجر فيها بأسواقكم.

حينما أعود من عملي، أجد زوجتي في انتظاري تحكي حكاياتها الغريبة عن الشرف والنسب والأصول والهم الذي تحملته منذ زواجها بمتوحد مثلي.

نعم لي أولاد ينامون للعصر، ولا يعملون، أنهوا دراساتهم وناموا بجوار أمهم، ولا يرغبون إلا في الطعام والتدخين والسهر على المقاهي كي يتواصلوا عبر أجهزة يحملونها في أياديهم مع كائنات فضائية لا يرونها، لكنهم يخلقون معهم قنواتٍ للتفاهم تغنيهم عن رؤية وجوهنا.

ربما تخلق هذه الأجهزة، بعد رحيلنا، جيلًا من المتوحدين يمكنه النوم واليقظة والعيش شهورًا أو سنين دون احتياج لسماع صوت البشر أو الشعور بآلامهم.

ربما يوطدون علاقاتهم مع كائناتهم الفضائية ويكتشفون لغة تغنيهم عن لغة الوطاويط، وتعفيهم من وضع النقاط والتنوين والفواصل بين الكلمات، أو التواصل بإشارات الوجه والجسد واللسان.

عندما حاولت دفعهم لشق طريقهم الواضح وسط الواقع الغارق في الآمال، صرخت زوجتي في وجهي وعنفتني واتهمتني بالخبل والجهل بخبايا عالم الفضاء الجديد.

حين كررت نصائحي ليسمع أبنائي صوتي أو يردوا على أسئلتي ويتركوا أجهزتهم لدقيقة واحدة، زمجروا وتحزبوا على روحي واتهموني بالجنون، وألقوني أيامًا طويلة داخل أسوار وعنابر لتلقي برنامج يعيد معالجة بياناتي التالفة.

قيدوني في السرير وربطوا لساني، وضعوا على خصيتي وفتحة مؤخرتي أسلاك الكهرباء، وحاولوا تنشيط لوزة الذاكرة وترقيعها لأتحدث مثلهم، لكني لم أستجب واشتقت دائمًا للمرور من طاقة السور التي أخفى أطباؤهم مكانَها في باطن أعماقي ببراعة، وحرموني بجريمتهم من معاشرة "شُرُك" الذي لا أعرف في أي زمن عاش حياته، وكيف عرفته؟

تمنيت أن أعافر مثله، فرغم عرج قدميه، لكنه يواصل كفاحه، ويبتهج، ويصارع الدنيا، ولا يهمه غير سعادة "ميمون" أخيه وعلاج عَمَى أمه "حزينة".

نعم لي أصدقاء وأهل مثلكم، لكنهم ضاعوا لأسباب لا أتذكرها، ومع ذلك تخيلت أوصالي المتقطعة أنهم ينتظرونني كل ليلة ليطعنوا ظهري.

أتيقظ بعض الأحيان مثلكم، وأعود كائنًا بشريًا يشعر فقط باحتياجات معدته ومتعة الكلام والركض مثل الغوازي.

وحين تعاودني النوبة أهرب في قاع أعماقي وأبحث عن طاقة السور، لكن لا أمل؛ فالأطباء أزالوا الطرق المعبدة إلى ضيائها، ووضعوا بدلًا منها صخورًا وجبالًا لا يمكن لأحد زحزحتها، وأشعر كل يوم بعد محاولاتي بأن ذاكرتي أصبحت مصمتة كالحجر.

فأعود إليكم خائب الرجاء محسورًا، فاقدًا معنى التواصل، رغم سماعكم، وفهم ما تقولون، لكني أعجز عن مبادلتكم الإشارات واللغة التي يجب أن تقال للاندماج في عالمكم.

أتعجب مثلكم، وأتساءل عن العائلة الغريبة التي كانت تأتيني في غيبوبتي، وأين هي حارة "شُرُك" وشعبته، وفي أي أرض يعيشون، ومتى يأتون، ولماذا يهربون، وهل يمكن استكمال حياتي معهم، وفقد مركزي المحفوظ في عالمكم؟

حزين ومحسور على حالي؛ لأنني شعرت بعد رجوعي من طاقة السور بضعف عزيمتي وموت أحلامي.

أحاول استعادة لون بيوت الشعبة، ووجه كبير الحراس وعيون أحبابي المحابيس الذين رافقوني خلال رحلتي وطاقة جيرانهم المحرومة من النور، وأتساءل: "أكل هؤلاء البشر المقاومين، لم يكن لهم وجود؟".

أكلُّ هذا الدمار بسبب العملية الجراحية وبرنامج المعالجة الذي أدى لفقدان أعماقي مكان طاقة السور التي كانت تلقيني داخل عوالم لا يراني فيها أحد.

الآن ضاعت جزيرتي التي تركن في الأثير وتمتلئ بوداعة الكائنات وصمتها، فمن يعوضني رائحة بيوت أحبابي المفروشة بالقبول؟

نعم كنت أسير بين حدائقهم، وأجلس على مقاهيهم وأشعر بالنعيم يجري في عروقي، كان يمكنني استكمال حياتي معهم بعيدًا عن رائحتكم، لكنَّ شيئًا ما دفعني للوقوف عند نقطتي الفاصلة، وتسمرت أقدامي كأنها جذع شجرة في أراضيكم الجافة، ولا أدري لماذا؟

رأيت كل ذلك بنفسي، ومع ذلك أشعر اليوم بأنني عاقل، يمكنني الجلوس على مقاهيكم، والرد على سلامكم، والذهاب إلى عملي وممارسة دوري كظل حائط، واستكمال حياتي

كالبرص غير عابئ بصراخ امرأتي أو عجز أبنائي، يمكنني فعل كل ذلك ونسيان غناء اليمامة الساكنة فوق البلوطة التي ينام تحتها حمار "شُرُك".

حين تيقنت بمأساتي نزفتْ دموعي، وشعرتُ باحتياجه، فلبَّى ندائي ودخل بملابسه البيضاء ورأسه الحليق، جلس بجواري، وحدثني عن الرحلة والأيام الصعبة وعشرتي الطيبة، وروحي المنطلقة، نطق حروف كلماته كاملة: "اقبلْ حتى ترتاح من أنينهم وصوت آلامهم".

أغمض عيني بأنامله، وانسحب من عروقي، وعبر من طاقة السور إلى خارج الغرفة، فأظلمت الدنيا حولي، وعاد عملائي وأهلي وأسرتي وأصدقائي إلى حياتي، لكن طاقة حواسي تيبست واحترقت، وعند تلك اللحظة توقف قلبي عن النبض، ومات خيالي.

تمت

الوراق

شاهدت نفسى ملقًى على شاطئ البحر وحيدًا، كنت عجوزًا أرتدى بدلة زرقاء، وأتعكز على عصاتى.

هبت الريح عاصفة، فطارت أوراقى وشوافة عينى، وعندما حاولت ملاحقتهم، وقعت على الرمال، وتقاذفتنى الأمواج.

التموا حولى، ولملموا حذائى وقصاصتى، وركنوهم إلى جوار جسدى المهتوك.

كرم صابر

أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة، وبدأ العمل بالمحاماة عام 1989؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها: المتهم، وأين الله، والضريح، وفؤاد المدينة، وطائر النسيان، ومريم العذراء، وكلاب السكك.




موت الخيال
كرم صابر
2016